

كتاب الهلال

مذكرات محكوم عليه بالإعدام

فيكتور هيجو

سلسلة ثقافية شهرية

كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير : مصطفى نبيل

سكرتير التحرير : عايد عياد

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

KITAB ALHILAL

العدد ٤٠٥ ـ ذو الحجة ١٤٠٤ ـ سبتمبر ١٩٨٤

No. 405 — September 1984

الاشتراكات

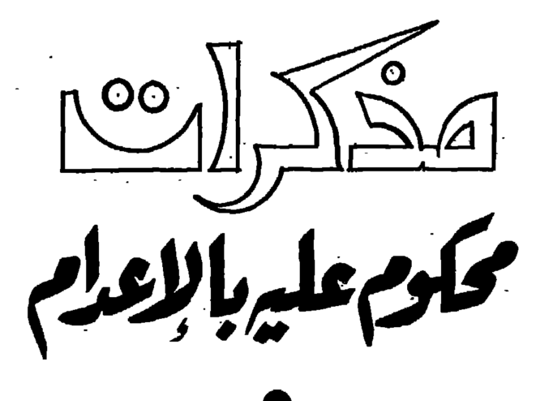
قيمة الاشتراك السنوى « ١٢ عددا » فى جمهورية مصر العربية اربعة جنيهات مصرية و ٨٠٠ مليم بالبريد العادى وفى بلاد اتحادى البريد العربى والافريقى والباكستان عشرة دولارات او ما يعادلها بالبريد الجوى . وفى سائر انحاء العالم عشرون دولارا بالبريد الجوى .

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج. م. ع نقدا او بحوالة بريدية غير حكومية وفى الخارج بشيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال . وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة اعلاه عند الطلب .

كتاب الهلال

سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغـــلاف بريشـة :
الفنانة سميحة حسنين



●

بقلم :

فيكتور هيجو

●

دار الهلال

مـــقـــدمـــة

لم يظهر فى مقدمة الطبعات الاولى من هذا الكتاب ، الذى نشر اول مانشر دون ذكر اسم مؤلفه ، سوى السطور القليلة التالية :

« هناك وسيلتان نحس عن طريقهما بوجود هذا الكتاب أو ان شئت فقل : كانت هناك فى الواقع رزمة من الاوراق الصفراء غير المنتظمة ، سجل عليها آخر ما جال بذهن انسان بائس من أفكار ، ورقة بعد ورقة ، أو انه كان هناك رجل مفكر ، شغلته ملاحظة الطبيعة فى سبيل الفن ، رجل فيلسوف أو شاعر — لست أدرى — كانت هذه الفكرة نزوة من نزواته سيطر عليها ، أو بالاحرى سيطرت هى عليه ، ولم يستطع التخلص منها الا بتدوينها فى كتاب . . وعلى القارىء أن يختار من بين هذين التفسيرين مايروق له » .

ويستطيع القارىء أن يلاحظ أن المؤلف لم يجد من المناسب أن يفصح عن فكره عندما نشر هذا الكتاب ، وانما آثر أن ينتظر حتى تفهم فكرته ويتلمس صداها لدى الجمهور . ومالبثت الايام أن حققت ماكان يتوق الى

معرفته ، اذا فهم الجمهور فكرته التى ضمنها هذا الكتاب.
ويستطيع المؤلف اليوم أن يكشف النقاب عن الفكرة السياسية والاجتماعية التى أراد أن يروج لها فى هذا القالب الادبى الساذج البرىء ، فهو يعترف اذن ، أو بالاحرى هو يعلن بصوت مدو وعلى رءوس الاشهاد ، أن كتاب « آخر أيام محكوم عليه بالاعدام » ليس الا دفاعا مباشرا ـ أو غير مباشر ان شئت ـ عن الغاء عقوبة الاعدام

ان ماكان يقصد اليه الكاتب بمؤلفه هذا ، وما كان يريد أن تتبينه الاجيال المقبلة ، اذا هى عنيت بأمره ، ليس الدفاع الخاص عن مجرم بعينه أو عن متهم يتخيره الكاتب فمثل هذا الدفاع الخاص أمره ميسور دائما وهو يتغير تبعا للظروف ، بل هو فى حقيقة أمره مرافعة عامة وابدية عن المتهمين جميعا ، فى الحاضر وفى المستقبل . انه حجر الزاوية فى الحق الانسانى الذى يبسطه الكاتب ويدافع عنه بأعلى صوته أمام المجتمع الذى يعد محكمة النقض الكبرى ، مستهدفا حماية حقه فى الاستئناف الذى غالبا مايرفض فى قضايا الاجرام !

انها مشكلة كئيبة مظلمة تنبض فى غير وضوح خلف جميع القضايا الكبرى ، وتختفى وراء ستار كثيف من الكلام الرنان ، ومن البلاغة الدامية التى يحيطها بها رجال الملك « اى رجال القضاء » . نعم ، اننى أقول انها مسألة « الحياة والموت » عارية ومجردة من كل رسميات النيابة العمومية وشكليات الاتهام الرنانة ، ومعروضة بشكل بارز فى وضح النهار ، فى المكان الذى يجب أن

نراها فيه ، مكانها الواقعى على الطبيعة ، وفى بيئتهـا الشنيعة المروعة ، لا عند القاضى فى المحكمة ، ولكن على المقصلة .. عند الجلاد !

ذلك هدف الشاعر الذى رمى اليه من تأليف هـذا الكتاب . فان كل المستقبل هامته ذات يوم بالمجد ــ وهو مالا يجسر على ان يأمله ــ فسوف يغنيه هذا عن كل شىء آخر ».

يعلن المؤلف اذن ويكرر القول باسم جميع المتهمين ، سواء كانوا أبرياء أو مذنبين ، أمام جميع المحاكم وسائر ممثلى الاتهام والمحلفين : ان هذا الكتاب موجه الى كل من يصدر حكما . ولكى يتسع مجال الدفاع حتى يشمل القضية برمتها ويغطى كل نواحيها ، فقد اضطر الكاتب لكتابة مؤلفه « آخر ايام محكوم عليه بالاعدام » ، أو « مذكرات محكوم عليه بالاعدام » على هذه الصورة ، وان يحذف من موضوعه ومن أجزائه جميعا الحادث نفسه والدافع اليه ، والظروف الخاصة والشخصية، وكل ما له صلة بالحادث ، واسم المذنب ، مكتفيا بالدفاع عن قضية شخص ما ، محكوم عليه بالاعدام ، ونفذ فيه الحكم لجريمة ما فى أى يوم من الايام .

وسوف يكون من دواعى سعادة المؤلف لو أنه استطاع ــ دون أن يستعين بشىء آخر غير تفكيره ــ ان يتعمق فى موضوعه كل التعمق كى يجعل قلبا تنزف منه الدماء تحت بصر رجال القضاء ، ولو أنه تمكن من أن يبعث الرحمة فى قلوب أولئك الذين يحسبون أنهم عدول،وسوف

يكون من دواعي سروره لو أنه استطاع بتعمقه في نفسية القاضي أن ينجح أحيانا في أن يجد فيه انسانا !

وعندما نشر هذا الكتاب منذ ثلاث سنوات ، تخيل بعض الناس أن من واجبهم أن يعلنوا على الملأ أن فكرته ليست فكرة المؤلف ، فقال فريق منهم أنه قد أخذها عن كتاب انجليزى ، وذهب فريق آخر الى أنه قد اقتبسها عن كتاب أمريكى ، وتلك لعمرى سنة مرذولة تدفعنا الى البحث عن أصول الاشياء بعيدا جدا ، على مسيرة آلاف الاميال ، وتجعل النهر الذى يغسل ماؤه شارعك يأتى من منابع النيل !

ومما يدعو للاسف ان أصل هذا الكتاب ليس انجليزيا ولا أمريكيا ولا صينيا ، فالمؤلف لم يأخذ فكرته من كتاب ما ، فهو لم يألف أن يذهب باحثا عن أفكاره بعيدا كل هذا البعد ، وانما أخذها من حيث تستطيعون جميعكم أن تأخذوها أو من حيث يحتمل أن تكونوا قد لمستموها بالفعل « اذ من منا لم يحلم ، أو يفكر ، فيما بينه وبين نفسه ، فى آخر يوم فى حياة شخص محكوم عليه بالاعدام ؟ ».. من الشارع ، بكل بساطة ، أو من الميدان العام ، أو من ساحة الاعدام . انه التقط هذه الفكرة الكئيبة وهو يمر من هناك ذات يوم .. التقطها وهى ملقاة على الارض فى بركة من الدماء ، تحت سلاح المقصلة الاحمر الرهيب !

وكلما كان يذاع حكم بالاعدام فى باريس ، تبعا لقضاة محكمة النقض في أيام الخميس الكئيبة ، كانت هذه الفكرة الأليمة تعود الى المؤلف وتستولى على نفسه ، فى كل مرة كان يسمع فيها تلك الصيحات المبحوحة التى تجمع

المتفرجين وتؤلبهم حول ساحة الاعدام ، وهى تمر من تحت نوافذ بيته . نعم ، كانت هذه الفكرة تلح عليه فتملأ رأسه بما فيها من جنود البوليس والجلادين والجماهير .
وتنقل الى مشاعره الآلام الاخيرة التى يقاسيها البـــائس المحتضر ساعة بساعة ، فتقول له : انهم فى هذه اللحظة يجعلونه يعترف أمام القسيس .. وفى هذه اللحظة ، يقصون له شعره .. وفى هذه اللحظة ، يوثقون يديه !

وكانت هذه الافكار ترغم المؤلف المسكين ــ وهو شاعر مرهف الحس رقيق الشعور ــ على أن يقول كل ذلك للمجتمع الذى تشغله شئونه المعتادة ، فى الوقت الذى تتم فيه هذه العملية البشعة ، وكان هذا الخاطر يطارده ويهز عواطفه ، وينتزع وحى الشعر من أعماق نفسه ان كان يعالج كتابته ويقتل أبياته على لسانه وهى بعـــد لم تر النور ! نعم ، كانت هذه الفكرة تحاصره وتلح عليه ، وتملأ رأسه ونفسه فتعطل كل أعماله ، وتعترض سبيله فى كل شىء . وكان الامر بالنسبة اليه عذابا اليما يبدأ مع مطلع النهار ، ثم يستمر بعد ذلك مع عذاب المذنب البائس الذى كان يمتد حتى الساعة الرابعة صباحا . وعندئذ فقط ، وبعد أن يتنفس الفجر ، كان فى وسع المؤلف أن يتنفس وأن يجد فى نفسه شيئا من الحرية .

واخيرا ، شرع المؤلف ذات يوم فى كتابة هذا الكتاب ، وكان ذلك ــ على مايعتقد ــ فى اليوم التالى لاعـــدام « دولباخ » ، فخف عنه كربه منذ ذلك الحين ، واصبح ضميره يوحى اليه أنه ليس متضامنا مع العدالة فى كل مرة ترتكب فيها احدى هذه الجرائم العامة التى يسمونها

.فيذ حكم الاعدام ، ولم يعد يحس على جبينه بقطـــرة الدماء التي تسقط من ساحة الاعدام على رأس كل فرد من افراد المجتمع .

ومع ذلك فان هذا كله ليس كافيا ، فالتبرؤ من الجريمة شيء حسن ، ولكن الافضل منه منع اراقة الدماء . ولهذا فلن يعرف المؤلف هدفا اسمى ولا أسلم ولا أنبل من هذا الهدف ، الا وهو الاسهام فى الغاء عقوبة الأعدام ، ومن ثم فانه يضم تمنياته وجهوده بكل قواه ، الى جهود الرجال الكرماء فى كل الأمم ، الذين يعملون جاهدين منذ عـدة اعوام من أجل اسقاط المقصلة ، وهى الشيء الوحيد الذى لا تجتثه الثورات . وسوف يسر المؤلف أن يأتى بدوره ، وهو الرجل الضعيف ، ليضرب ضربته معاونا فى هدم آلة الاعدام التى تسلط منذ قرون عـديدة على رءوس الناس .

***

لقد ذكرنا منذ لحظة ان المقصلة هى البناء الوحيد الذى لا تقوضه الثورات ، والواقع انه يندر أن تبخل الثورات بدم البشر ، فهى تأتى لتغير وتعدل من نظم المجتمـــع وأوضاعه ، ومن ثم تكون عقوبة الاعدام من الامور التى لا تتنازل عنها الا بصعوبة بالغة .

ولكننا سوف نعترف مع ذلك بانه اذا كانت هناك ثورة قد بدت لنا مجيدة ، وتستطيع حقا أن تلغى عقوبة الاعدام، فان هذه الثورة هى ثورة يوليو ، اذ يبدو لنا فى الواقع انه من واجب أكثر الحركات الشعبية تسامحا فى العصر

الحديث أن تلغى هذه العقوبة البربرية التى انشأها لويس الحادى عشر وريشليو وروبسبير (١) ، وأن تنص فى القانون على عدم جواز اهدار حياة الانسان . نعم ، ان ثورة يوليو عام ١٨٣٠ كانت جديرة بتحطيم مقصلة عهد الارهاب التى كانت قائمة منذ عام ١٧٩٣ .

لقد رجونا ذلك لحظة ، ففى شهر اغسطس من عام ١٨٣٠ ، كان فى وسع المرء ان يستنشق فى الجو كثيرا من الشفقة والكرم ، وكانت ترفرف فوق الجماهير روح جميلة من الرقة والمدنية ، وكنا نشعر بأن قلوبنا تتفتح وهى تحس باقتراب مستقبل باسم ، حتى بدا لنا أن عقوبة الاعدام قد الغيت بالفعل دفعة واحدة باتفاق عرفى عام ، شأنها شأن غيرها من الامور التى كانت قد ضايقتنا اشد المضايقة !

ان الشعب كان قد تخلص من آثار العهد البائد فى فرح غامر ، والمقصلة اثر دام من هذه الآثار ، وقد حسبنا أننا تخلصنا منها وأنها حرقت مع ماحرق ، وظللنا لعدة اسابيع نثق بالمستقبل فى سذاجة ، مؤمنين بأنه لا يمكن الاعتداء على الحياة كما لا يمكن الاعتداء على الحرية .

والواقع أنه ماكاد ينقضى شهران حتى بذلت محاولة تهدف الى تحقيق الامنية المثالية العظمى ، التى طالما تمناها « سيزار بونيزانا » ، الا وهى الغاء عقوبة الاعدام وجعلها حقيقة قانونية ، غير أن هذه المحاولة كانت تفتقر ، للأسف ، الى المهارة والحذق ، بل انها كانت خبيثة

---

(١) ريشيليو احد الوزراء الفرنسيين قبل الثورة . اما روبسبير فهو ارهابى من رجال الثورة الفرنسية .

تقريبا ، فقد تمت بقصد خدمة مصلحة أخرى غير المصلحة العامة .

اننا نتذكر انه فى شهر اكتوبر من عام ١٨٣٠ ، بعد ان استبعد البرلمان اقتراح دفن نابليون تحت تمثال العامود بعدة أيام ، اخذ ممثلو الامة جميعا يبكون وينتحبون ، وطرحت مسالة الحكم بالاعدام على بساط البحث ، وسوف نذكر بعد بضعة اسطر فى اية مناسبة طرح هذا الموضوع للبحث ، فبدا عندئذ ان قلوب هؤلاء المشرعين جميعا قد امتلأت فجاة بشفقة عجيبة ، حتى أنهم كانوا يتزاحمون على الكلام ، وعلى العويل والنحيب ورفع أيديهم نحو السماء ! .. الحكم بالاعدام !.. ياالهالسموات والأرض ! .. ياله من شيء بشع شنيع !

نعم .. هكذا كانوا يقولون ، ومنهم هذا النائب العام الشيخ الذى ابيض شعره وهو يرتدى « الروب » الاحمر والذى سلخ كل حياته وهو يأكل الخبز مغموسا فى دم الاتهامات ، فقد لبس من فوره مسوح العطف والشفقة ، واشهد الآلهة على انه يمقت المقصلة . ولم يخل المنبر لمدة يومين كاملين من خطب تفيض بالبكاء والنحيب حتى بدا الامر وكأنه « محزنة » ندب فيها الندابون ، ورددوا فاصلا من التراتيل الحزينة مع « تخت » كبير ، كبير جدا ، بمصاحبة المجموعة « الكورس » المكونة من كل هؤلاء الخطباء الذين يشغلون الصفوف الاولى من المجلس النيابى والذين يرسلون انغاما جميلة للغاية فى الايام المجيدة . لقد غنى كل منهم على طريقته ولم يكن هناك نقص فى اى شيء وكان الامر يثير العاطفة ويحرك الشفقة الى اقصى حد ،

خاصة وان جلسة الليل كانت ابوية رحيمة ، تتقطع لها نياط القلوب ، تماما كما تتقطع لدى رؤية الفصل الخامس من مسرحية « لاشوسيه » ، وكانت الدموع تترقرق فى عين الجمهور الطيب القلب الذى كان لا يفهم شيئا من كل ذلك .

فعلام كانت تدور مناقشتهم عندئذ ؟ الغاء عقوبةالاعدام؟

نعم .. ولا !

وهذا هو الواقع :

ان اربعة رجال من المجتمع الراقى ، اربعة رجال ذوى مراكز مرموقة من صنف هؤلاء الرجال الذين نصادفهم فى صالونات الطبقة العليا ، والذين قد نتبادل معهم بضع كلمات مؤدبة ، اقول ان اربعة من هؤلاء الرجال كانوا قد حاولوا ، في الدوائر السياسية العليا ، احدى هذه الضربات الجريئة التى يسميها « بيكون » جرائم ، ويطلق عليها « ماكيافيللى » اسم « مشاريع » ولكن القانون فى قسوته على الجميع يعاقب على هذه الجرائم او المشاريع بالاعدام . وكان هؤلاء الرجال الاربعة سجناء واسرى فى قبضة القانون يحرسهم ثلثمائة جندى فى سجن «فانسين» .. فما العمل وكيف العمل ؟.. لاشك فى انكم تفهمون انه يستحيل أن يرسل الى ساحة الاعدام اربعة رجال مثلى ومثلك .. اربعة رجال من الطبقة الراقية لا يمكن أن يساقوا الى ساحة الاعدام فى عربة « كارو » وهم مقيدون بالحبال الغليظة فى بشاعة ، وظهر كل واحد منهم الى ظهر الاخر ، ومعهم هذا الموظف الذى يجب الا يذكر اسمه قط ! .. آه لو كانت هناك مقصلة من خشب ثمين !

آه ! .. ليست هناك اذن وسيلة لانقاذ رءوسهم الا بالغاء عقوبة الاعدام !

***

وهنا تحرك البرلمان وبدأ فى العمل !

ارجو أن تلاحظوا أيها السادة أنكم حتى الامس القريب كنتم تنعتون هذا الالغاء بأنه مجرد نظرية مثالية خيالية ، وبانه حلم وشعر وجنون . ولاحظوا كذلك أن هذه ليست أول مرة يحاولون فيها لفت نظركم الى العربة « الكارو» ، والى الحبال الغليظة ، والى الآلة الحمراء البشعة ! انه لمن الغريب حقا أن تسترعى كل هذه الاشياء الرهيبة انتباهكم الآن فجاة على هذا النحو !

صمتا ! فالامر ليس كما تظنون ! فنحن لا نلغى عقوبة الاعدام من أجلك انت أيها الشعب ، بل من أجلنا نحن النواب الذين قد نصبح وزراء فى يوم من الايام . فنحن لا نريد أن تعض المقصلة الطبقات العليا ، من أجل ذلك فاننا نحطمها ، وحسنا نفعل اذا كان عملنا هذا فيه ارضاء للجميع ، غير أننا لم نفكر الا فى أنفسنا ونحن نقوم به ! فلنطفىء النار اذن ، ولنلغ الجلاد بسرعة ، ومعه قانون الاعدام .

وهكذا ، فان مزيجا من الانانية ينحرف بخير المشروعات الاجتماعية ويفسدها . انه العرق الاسود يجرى فى الرخام الابيض ، ويسير فى كل موضع فيه فيظهر فجاة ، وفى اية لحظة ، تحت « أزميل » النحات . ان تماثيلكم أيها السادة يجب أن يعاد صنعه من جديد .

ونحن لا نشعر يقينا باننا فى حاجة الى ان نعلن ذلك

هنا ، فلسنا من الذين كانوا يطالبـون برءوس الوزراء الاربعة . فبعد القبض على هؤلاء الرجال ذوى الحـظ العاثر ، تحول لدينا الغضب والاشمئزاز اللذان كنا نشعر بهما بسبب مؤامرتهم الى شفقة عميقة كما حدث لدى الجميع . لقد أنعمنا النظر فى الافكار العتيقة التى تربى عليها بعضهم ، وفى عقل رئيسهم ذى الافق الضيق ، وهو انسان متعصب ومتآمر عنيد ممن اسهموا فى مؤامرات عام ١٨٠٤ ، قد ابيض شعره قبل الاوان ، وهو فى الظل والرطوبة فى سجون الدولة ، كما فكرنا فى كل الظروف الحتمية التى كانت تحيط بموقفهم المشترك ، وفى استحالة وقف هذا الانحدار السريع الذى كانت الملكية قد دفعت نفسها اليه بأقصى سرعتها فى الثامن من أغسطس عام ١٨٢٩ ، وفكرنا كذلك فى مدى الاثر الذى يحدثه شخص الملك ذاته فى أنفسنا ، وهو أثر لم تكن نشعر به الا قليلا جدا حتى ذلك الحين ، وفكرنا خاصة فى العزة والكرامة اللتين كان أحدهم يبسطهما على الآخرين فى محنتهم كمعطف ثمين .

لقد كنا من الذين كانوا يتمنون لهم مخلصين أن تنقذ حياتهم ، وكنا على اهبة الاستعداد لان نضحى فى هذا السبيل ، فلو حدث المستحيل ونصبت لهم المشنقة يوما فى ساحة الاعدام ، فاننا لانشك فى أنه سوف تحـدث مظاهرات شعبية عنيفة لتهدم هذه المشنقة ، وسـوف يكون كاتب هذه السطور مع تلك المظاهرات المقدسة اذ يجب علينا أن نقول كذلك فى صراحة ، انه اذا قورنت كل المشانق فى اوقات الازمات السياسية ، فان المشـنقة

السياسية تكون ابشعها واكثرها شؤما واوفرها سما واجدرها بالازالة على الاطلاق . ان هذا الضرب من المقصلة تنبت جذوره فى الشارع ، ويترعرع فى وقت وجيز لينتشر فى الارض . ففى وقت الثورة ، خذوا حذركم لاول راس يهوى ، لانه يفتح شهية الشعب .

لقد كنا اذن متفقين شخصيا مع الذين كانوا يريدون انقاذ رءوس الوزراء الاربعة ، كنا متفقين معهم على اية صورة من الصور ، وذلك لاسباب عاطفية واخرى سياسية ، وانما كنا نؤثر فقط أن يتخير البرلمان فرصة غير هذه لاقتراح الغاء عقوبة الاعدام .

ولو انهم اقترحوا هذا الالغاء لا بمناسبة سقوط اربعة وزراء من قصر التويلرى « قصر الحكم » الى سجن « فانسين » ، بل من أجل أى مجرم عادى ، من اجل واحد من هؤلاء البائسين الذين لا تدقق النظر اليهم حينما يمرون على مقربة منك فى الطريق ولا تبادلهم الحديث ، وتتجنب الاحتكاك بهم بغريزتك لقذارة ملبسهم هؤلاء التعساء الذين كانت طفولتهم جريا فى العراء وهم حفاة فى الوحل عند تقاطع الشوارع ، يرتجفون من البرد شتاء على قنرة الطريق ، ويستدفئون على دخان المطابخ مطابخ مطعم « مسيو فيفور » العظيم ، الذى تتناول طعامك فيه ، وهم ينقبون هنا وهناك عن كسرة من الخبز فى وسط القمامة ويمسحونها قبل أن يتبلغوا بها ، ثم ينبشون عن غيرها . وليس لهم من تسلية الا ذلك المنظر المجانى ، منظر عيد الملك ، ومنظر المحكوم عليهم بالموت ، وهم فى ساحة الاعدام ، وهذا المشهد الاخير بالمجان

كذلك . يالهم من بائسين مساكين يدفع بهم الجوع الى السرقة ، وهذه تدفع بهم الى الباقى .. ! انهم اطفال محرومون فى مجتمع قاس تأخذهم اصلاحيات الاحداث فى سن الثانية عشرة ، والليمان فى الثامنة عشرة ، وتتلقفهم المشنقة فى سن الاربعين . انهم سيئو الحظ ، وكان فى وسعكم بمدرسة ومصنع أن تجعلوا منهم اناسا طيبين صالحين ، أناسا نافعين ذوى خلق كريم . انهم سيئو الحظ لانكم لا تدرون ماذا تفعلون بهم الا أن تلقوا بهم كما يلقى المرء بحمل لا نفع فيه ، تارة فى ليمان « طولون » واخرى فى مقبرة « كلامار » ، لتسلبوهم الحياة بعد أن تكونوا قد سرقتم الحرية منهم ... فلو انكم اقترحتم الغاء عقوبة الاعدام من أجل واحد من هؤلاء الرجال ، لكانت جلستكم اذن مجيدة حقا ، وعظيمة وجليلة ومقدسة وجديرة بالتبجيل . فمنذ ان دعا قساوسة « ترانت » العظماء الخارجين على الكنيسة الى الاجتماع بهم باسم الرحمة الالهية ، اذ كانوا يأملون هدايتهم ، لم نر قط جماعة من الرجال قدمت للعالم ماهو اكثر عظمة ونبلا وشفقة ببنى البشر من هذا المشهد . لقد كان من الواجب دائما على أولئك الذين هم أقوياء وعظماء حقا ان يعنوا بالضعيف ، وأن يهتموا بأمر الصغير . ان جمعية من البراهمة كانت تكون جميلة لو انها عنيت بأمر الفقير المعدم ، وقضية الفقير المعدم هنا ليست الا قضية الشعب . فلو انكم كنتم الغيتم عقوبة الاعدام من اجل الشعب ، دون أن تنتظروا حتى تكون لكم مصلحة فى

ذلك ، لاتمتم بهذا ماهو أكثر من العمل السياسى ، ولاتممتم عملا اجتماعيا بمعنى الكلمة .

لكنكم لم تنجزوا حتى مجرد عمل سياسي بمحاولتكم الغاء عقوبة الاعدام ، لا التماسا لهذا الالغاء للذاته ، ولكن لانقاذ أربعة وزراء بائسين ضبطوا متلبسين بتهمة التآمر لاحداث انقلاب !

فماذا حدث ؟ انكم قد أثرتم الريب والشكوك ، نظرا لانكم لم تكونوا مخلصين . وعندما رأى الشعب أن الغرض هو خداعه غضب على هذه المسألة برمتها وحدث أمر جدير بالملاحظة ، فقد تحمس الشعب لحكم الاعدام مع أنه هو الذى يتحمل عبئه كله ! ان افتقاركم الى المهارة هو الذى جعل الامور تسير على هذا النحو ، فأنتم قد أسأتم الى هذه المسألة اساءة طويلة الامد بمعالجتكم اياها على هذا النحو من اللف والدوران وعدم الصراحة . لقد كنتم تمثلون رواية هزلية فصفر النظارة لكم .

ومع ذلك ، فقد أخذت بعض النفوس هذه المهزلة مأخذ الجد ، وصدر الامر ، بعد جلسة البرلمان المشهورة مباشرة ، من حامل الاختام ــ وهو رجل شريف ــ الى رؤساء النيابة بايقاف تنفيذ أحكام الاعدام الى أجل غير مسمى . وكان ذلك خطوة كبرى فى الظاهر ، وتنفس أعداء عقوبة الاعدام الصعداء ولكن فرحتهم لم تتم . كانت وهما قصير الأمد .

وانتهت محاكمة الوزراء ، ولا أعرف الحكم الذى صدر عليهم ، وانقلدت رءوسهم الاربعة ، واختير لهم سجن «هام ــ Ham » كحل وسط بين الموت والحرية . وبعد أن

تمت كل هذه الاجراءات ، تلاشى كل اثر للخوف من نفوس القادة من رجال الحكم ، ومع ذهاب الخوف تلاشت كل المشاعر الانسانية ، ولم يعد احد منهم يذكر الغاء عقوبة الاعدام .. ولما لم يعد من مصلحتهم اثارة هذه المسألة ، عاد الخيال خيالا ، وارتدت النظرية الى سيرتها الاولى ، وانقلب الشعر شعرا كما كان من قبل .

ومع ذلك ، كان لا يزال هناك فى السجون بعض البائسين من المحكوم عليهم بالاعدام العاديين ، كانوا يتنزهون فى ردهات السجون منذ خمسة أشهر أو ستة ، وهم يستنشقون الهواء وقد هدأت أنفسهم منذ اثارة هذه المسألة فى البرلمان ، ووثقوا من أنهم سوف يعيشون وقد اعتقدوا أن ايقاف التنفيذ هذا معناه العفو عنهم .. ولكن، صبرا لحظة !

***

حقا لقد كان الجلاد خائفا للغاية ، ففى اليوم الذى كان قد سمع فيه المشرعين يتحدثون عن الانسانية وعن حب الغير وعن التقدم ، ظن أنه ضائع لا محالة ! وبلغ من تعاسته أنه اختبأ تحت مقصلته وهو لا يحس بادنى سرور او ارتياح تحت شمس شهر يوليو ، كبومة فى وضح النهار ، وهو يحاول جاهدا أن يجعل الناس ينسون أمره، وكان يسد أذنيه ، ولا يجرؤ على أن يلتقط أنفاسه .. لم يعد يراه احد منذ ستة اشهر ، ولم يكن احد يدرى ما اذا كان ميتا أو لا يزال على قيد الحياة ، ومع ذلك فقد خذ الرجل يطمئن رويدا رويدا فى ظلماته ، وكان ينصت لى ماكان يدور فى البرلمان فلم يعد يسمعهم ينطقون

باسمه ، ولم يعد يسمع تلك الكلمات الرنانة التى كانت قد القت فى قلبه الرعب . لم تعد ثمة تعليقات بليغة عن كيفية معالجة الجرائم والعقوبات ، فقد كانوا يهتمون بأشياء أخرى على شيء من الخطورة فيما يختص بمصلحة المجتمع ، كطريق يصل بين قريتين ، أو منح اعانة لممثلى دار الاوبرا ، أو زيادة الميزانية الهزيلة بمقدار مائة الف من الفرنكات !! لم يعد يفكر فيه أحد ، هو : قاطع الرءوس !

وما أن راى الرجل ذلك حتى اطمأن قلبه ، وأطل برأسه خارج الجحر مقلبا بصره فى جميع الاتجاهات ، ثم خطا الى الأمام خطوة أو خطوتين ، كما يفعل أى فار من فئران الشاعر « لافونتين » ، وبعد ذلك خاطر بأن خرج تماما من مخبئه ، ثم قفز على المقصلة واخذ يعدها ويمسحها ويصلح من شأنها ، ثم لمعها وداعبها وجربها « على الفاضى » وهو يعد نفسه بأن يقدم عملا لهذه الآلة القديمة التى علاها الصدأ وأتلفتها البطالة !!

وتلفت الجلاد خلفه فجأة ، وامسك بأحد هؤلاء المنكودى الحظ كما سمحت له الصدفة فى أول سجن صادفه ، أحد هؤلاء الذين كانوا يعولون على الحياة ، امسك به من شعره وجذبه اليه ، ثم جرده من ملابسه ، وشد وثاقه ، وأعدمه .. وهكذا عادت عقوبة الاعدام !

ان هذا كله شيء شنيع .. ولكنه التاريخ !

نعم ، لقد كانت هناك فترة مدتها ستة أشهر أجل فيها تنفيذ عقوبة الاعدام ومنحت لمسجونين تعساء ، ضوعفت لهم العقوبة مجانا على هذا النحو بجعلهم يأملون فى الحياة

ويتعلقون بها ، ثم .. بلا سبب .. ولغير ضرورة ، ولمجرد اللذة الغى وقف تنفيذ أحكام الاعدام ذات صباح ، وقطعت رءوس كل هؤلاء الناس فى برود شديد وبطريقة منظمة .. آه ! .. يا الهى ! هل لى أن أسألكم : ما ضرنا نحن جميعا لو عاش هؤلاء الرجال ؟ ألا يوجد فى فرنسا هواء يكفى الجميع ؟

ونظرا لان كاتبا صغيرا فى الحكومة كان لايعنيه الامر ، نهض من على مقعده ذات يوم ، وهو يقول : « هيا بنا !.. لم يعد أحد يفكر فى الغاء عقوبة الاعدام . لقد حـان الوقت لنعود الى قطع الرقاب بالمقصلة ! » لابد أن يكون قد حدث فى قلب هذا الرجل أمر وحشى ، أمـر بالغ الشناعة !

ونرى لزاما علينا أن نقول من ناحية أخرى أنه لم تصاحب تنفيذ أحكام الاعدام ظروف أكثر بشاعة قط الا منذ الغاء وقف تنفيذ احكام الاعدام ، الذى صدر الأمر به فى شهر يوليو ـ ولم تكن قصص مايجرى فى ساحة الاعدام قط أكثر اثارة للنفوس ، مما يبرهن تماما على مقت النـاس لعقوبة الاعدام .. ان ازدياد فزع الناس من هذا الحكم انما هو عقاب عدل موجه لاولئك الذين أعـادوا تطبيق قانون الدم ، فليلقوا جزاء وفاقا على ماصنعوه .

***

ويجب أن نذكر هنا مثلين أو ثلاثة أمثال لما حـدث فى بعض وقائع الاعدام ، مما ينضح بشاعة وقذارة . يجب علينا أن نرهق اعصاب زوجات وكلاء النيابة ، فالمـرأة لها أثرها احيانا فى ايقاظ الضمير .

فى نهاية شهر سبتمبر الماضى على وجه التقريب ، وفى أواسط فرنسا ــ ولا يحضرنا تماما المكان ، واليوم ، واسم المحكوم عليه ، ولكننا سوف نعثر على هذا كله اذا حدث أن شك أحد أو عارض فى صحة هذه الواقعة ــ ونعتقد أن ذلك حدث فى « باميه » . فقد دخلوا على رجل فى سجنه حيث كان يلعب الورق فى هدوء ، فأعلنوه بأنه سوف يموت بعد ساعتين ، فأرسل هذا القول رجفة قاسية فى كل أوصاله . ذلك أنهم كانوا قد نسوا أمره لستة أشهر فلم يعد يفكر فى الموت .. وحلقوا للرجل لحيته ، وقصوا له شعره ، وأوثقوه بالحبال ، وجعلوه يعترف أمام القسيس . ثم أركبوه عربة « كارو » بين أربعة من الجنود ، ومروا به خلال الجماهير حتى وصلوا الى مكان التنفيذ .

والى هنا ، فالامر يهون ، اذ أنه يتم على هذا النحو . ولما بلغ الرجل مكان الآلة الرهيبة تلقاه الجلاد من القسيس ، وحمله وربطه على المقصلة ، ثم جعله يطاطىء رأسه وهوت السكين . لقد تحرك المثلث الحديدى الثقيل فى صعوبة ثم هوى وهو يحك فى مجراه ! وهنا بدأت البشاعة ، فقد أخذت السكين تحز فى رقبة الرجل دون أن تذبحه ، فصاح صيحة بشعة . وحار الجلاد فى الأمر فرفع السكين ثم تركها تهوى من جديد . فعضت رقبة السكين مرة أخرى ولكنها لم تقطعها . فصرخ المحكوم عليه ، وصاح الجمهور كذلك ، فرفع الجلاد السكين مرة ثالثة وهو يأمل خيرا فى الضربة الثالثة ولكن .. بلا جدوى !

ان الضربة الثالثة قد فجرت نهرا ثالثا من الدماء اخذ يجرى على رقبة المحكوم عليه ولكنها لم تطح برقبته !

والآن فلنوجز : ان السكين قد رفعت ثم هوت خمس مرات وخمس مرات جرحت المحكوم عليه ، وخمس مرات صرخ الرجل من اثر الضربة ، وهز راسه الحى وهو يطلب الرحمة ! فثار الشعب وأمسك بأحجار ليرجم بها الجلاد التعس ، فهرب الجلاد تحت المقصلة واحتمى خلف خيول الجنود .. ولكن هذه ليست نهاية المأساة ..

ان المحكوم عليه حينما وجد نفسه وحيدا على المقصلة، اعتدل على اللوحة الخشبية وظل واقفا هناك بمنظره المفزع ، وهو يقطر دما ويسند رأسه نصف المقطوع ،الذى كان يتدلى على كتفه ، وراح يطلب فى صياح مبحوح ان يفكوا وثاقه !

فغمرت الشفقة قلب الجمهور ، وهم بأن يقتحم نطاق الجنود وأن يخف لنجدة هذا البائس الذى نفذ فيه حكم الاعدام خمس مرات . وفى تلك اللحظة بالذات ، صعد على المقصلة صبى الجلاد ، وهو شاب فى نحو العشرين من عمره ، وامر المحكوم عليه بأن يستدير كى يفك وثاقه ، ثم استغل وضع هذا الرجل المشرف على الموت ، الذى كان يسلم نفسه اليه بسلامة نية ، فوثب على ظهره وشرع يقطع له فى صعوبة ما كان قد تبقى من رقبته بسكين جزار !

ان هذا قد حدث ورآه الناس رأى العين .. نعم ، رآوه رأى العين !

وكان هناك بحسب نص القانون ، قاض يشهد تنفيذ هذا الحكم . وكان يستطيع باشارة منه أن يوقف كل شيء! فماذا كان يفعل هذا الرجل اذن وهو فى عربته بينما كانوا يغتالون انسانا ؟ ماذا كان يفعل معاقب القتلة هذا فى الوقت الذى كانت عملية اغتيال تجرى فى وضح النهار ، أمام عينيه ، وتحت خيول عربته ، وتحت زجاج نافذتها ؟ .

لم يقدم القاضى للمحاكمة ! ولم يقدم الجلاد للمحاكمة ، ولم تحقق اية محكمة فى هذا الافناء الوحشى لجميع القوانين فى شخص مخلوق مقدس من مخلوقات الله !

***

فى عصر همجية القانون الجنائى فى القرن السابع عشر ، ابان حكم « ريشيليو » وحكم « كريستوف فوكيه » ، حينما اعدم السيد « دى شاليه » أمام الناس فى ميدان بمدينة « نانت » على يدى جندى غير ماهر ضربه أربعا وثلاثين ضربة (١) بآلة حادة يستعملها صانع البراميل فى تجميع الخشب ، وذلك بدلا من أن يضربه ضربة واحدة بسيف ، بدا هذا على الاقل أمرا غير مشروع فى نظر برلمان باريس ، فأجرى تحقيقا واقيمت قضية . ولئن كان ريشيليو لم يعاقب ، ولئن كان كريستوف فوكيه لم يعاقب فان ذلك الجندى قد لقى جزاءه . كان هذا ظلما دون شك ، ولكنه ظلم يكمن العدل وراءه !

(١) يقول لابورت انها اثنتان وعشرون ضربة ويقول (اوبرى) انها أربع وثلاثون .. وكان مسيو (دى شاليه) يصرخ فى كل مرة حتى الضربة العشرين !

أما هنا ، فلم يحدث شيء على الاطلاق . لقد وقع هذا الحادث بعد شهر يوليو في وقت سادت فيه الطباع الرقيقة والتقدم ، وبعد عام واحد من « محزنة » البرلمان المشهورة على عقوبة الاعدام . حسنا ! ان هذا الحادث لم يذكره أحد على الاطلاق ، ونشرته صحف باريس كأنه حكاية عادية ، ولم يحاكم أحد بسببه ولم يوجه الاتهام الى أحد!

كان كل ماعرفوه أن المقصلة قد أتلفت عمدا ، اتلفها شخص كان « يريد أن يضر بمنفذ أحكام القضاء » ، كان هذا الشخص هو أحد خدم الجلاد ، وقد دبر هذه المكيدة لينتقم من سيده لانه كان قد طرده من خدمته .

لم تكن هذه الا مكيدة خادم ، فلنتابع سرد أمثلتنا اذن :

وفي مدينة « ديجون » ، سيقت امراة منذ ثلاثة أشهر الى ساحة الاعدام ، « تصوروا .. امراة ! » ، وفي هذه المرة ايضا لم تؤد سكين الدكتور جيوتان (١) عملها كما يجب ، فلم تقطع الراس تماما بحيث ينفصل عن الجسم . وعندئذ ، تعلق مساعدو الجلاذ بقدمي المراة ، وفصلوا راس البائسة عن جسدها وهي تطلق صرخات مدوية ، بان انتزعوها انتزاعا بقوة الشد والجذب .

وفي باريس ، نعود الى الوقت الذي كان يجري فيه تنفيذ عقوبة الاعدام في السر . فنظرا الى أنهم كانوا منذ شهر يوليو لا يجرءون على تنفيذ أحكام الاعدام في

(١) يعني المقصلة التي عرفت في فرنسا منذ الثورة الفرنسية بهذا الاسم ، نسبة الى مخترعها الدكتور جيوتان ــ المترجم .

ساحة الاعدام ، والى انهم كانوا خائفين ، وبما أنهم كانوا جبناء ، فان هذا هو ماحدث :

لقد اخذوا أخيرا من سجن « بيستر » رجلا محكوما عليه بالاعدام ، يدعى « ديزاندريو » على ما اعتقد ، ووضعوه فى شيء يجر على عجلتين ، مغلقا من كل نواحيه كسلة ، ومقفلا قفلا محكما بالاقفال والمزاليج ، ثم ساروا به دون جلبة وبلا جمهور يرافقه ، بين جنديين أحدهما أمامه والآخر من خلفه ، ثم القوا بالسلة والرجل الذى فيها فى وسط الحقول خارج باريس ، فيما وراء حى «سان جاك » .. وكانت الساعة الثامنة صباحا فى مطلع النهار عندما وصلوا الى هناك ، وكانت هناك مقصلة « طازجة» لم تستعمل بعد أعدت خصيصا لهذا الرجل ، وكان الذين شهدوا هذا المنظر بضعة غلمان صغار اجتمعوا على كومة احجار قريبة حول تلك الآلة التى نصبت على غير انتظار .. ثم أخرج الرجل من السلة فى سرعة ، ودون أن تتاح له اية فرصة ليلتقط أنفاسه ، ثم قطع رأسه خلسة فى صورة تنطوى على الخيانة والعار ! .. وهذا هو ما يسمونه « عملا رسميا وعاما من أعماله العدالة الكبرى » ، فيالها من سخرية دنيئة !

فكيف اذن يفهم رجال الملك كلمة المدنية ؟ وفى اى عصر نعيش ؟ ان العدالة قد انحطت حتى أضحت حيلا وخططا قيا للشناعة !

ان الشخص المحكوم عليه بالاعدام اذن شيء مخيف للغاية يخشى المجتمع بأسه ، ويأخذ حذره منه الى هذا الحد وعلى هذا النحو !

ومع ذلك ، فلنكن منصفين ! ذلك أن تنفيذ عقوبة الاعدام لم يكن بطريقة سرية تماما . ففي الصباح ، نادى المنادون كالمعتاد ، وبيع حكم الاعدام في شوارع باريس وميادينها .. ويبدو أن هناك اناسا يعيشون من بيع هذه الاشياء ، فهل تسمعون ؟ انهم يتخذون من جريمة انسان سيىء الحظ ومن عقابه وعذابه واحتضاره سلعة تباع الورقة منها بدرهم ! فهل في وسعكم أن تتخيلوا شيئا اكثر قبحا من هذا الدرهم الملطخ بالدم ؟ فمن ذا الذي يلتقطه اذن من بينكم ؟

تلك وقائع كافية ، كافية اكثر مما ينبغي .. أليس هذا كله شيئا مروعا ؟ فماذا لديكم تستطيعون به أن تؤيدوا عقوبة الاعدام ؟

اننا نلقي عليكم هذا السؤال بصورة جدية ، نلقيه عليكم كي تجيبونا عنه . اننا نوجهه الى علماء الجريمة لا الى المثقفين الثرثارين ، فنحن نعلم أن هناك من يؤيد عقوبة الاعدام ، لا لشيء الا ليخالف بذلك رأى الغير كما يفعل في كل شيء . وأن هناك آخرين لا يحبون عقوبة الاعدام الا لانهم يكرهون زيدا أو عمرا ممن يهاجمونها : فهي بالنسبة اليهم مسألة كلام ... مسألة اشخاص .. مسألة افراد يسمون فلانا وفلانا . هؤلاء هم الحساد ، وكثيرون منهم من المشرعين ومن كبار الفنانين ، ومثلهم كمثل « جوزيف جريبا » في معارضه « لفيلانجييري » ، وكمثل « توريجياني » في نقده « لمايكل انجلو » ، وكمثل « سكوديري » في تحديه للكاتب المسرحي « كورني »

اننا لا نتوجه بالحديث الى هؤلاء الناس ، وانما الى رجال القانون بمعنى الكلمة ، والى المفكرين وذوى المنطق السليم ، الى أولئك الذين يحبون عقوبة الاعدام لانها عقوبة الاعدام ، يحبونها لجمالها وطيبتها وحسنها !

هيا اذن .. فليدلوا بدلوهم ، وليقدموا لنا حججهم .

يقول الذين يحاكمون غيرهم ويصدرون عليهم الاحكام أن عقوبة الاعدام امر ضرورى ، أولا : « لان من الضرورى أن نبتر من المجتمع عضوا قد أساء اليه من قبل وقد يسىء اليه بعد ذلك . . فاذا كان الامر مقصـــورا على ذلك فالسجن المؤبد يكفى . فلماذا الموت اذن ؟ أتفترضون انه يمكن الفرار من السجن ؟ حسنا .. فلتشددوا الحراسة. فان كنتم لا تثقون من متانة القضبان الحديدية ، فكيف تتجرءون على أن تحبسوا وراءها الوحوش الضارية ؟

ليس ثمة مايدعو الى وجود الجلاد مادام السجان يكفى

ولكنهم يستطردون فيقولون : « ان المجتمع يجب أن يثأر لنفسه وأن يعاقب . » كلا ، لا هذا ولا ذاك ، فالثأر شىء فردى ، أما العقاب فبيد الله »

والمجتمع بين اثنين : العقاب فوق المجتمع ، والانتقام أقل منه . الأول كبير للغاية ، والثانى صغير للغاية،وكلاهما لا يلائمه . ومن واجب المجتمع الا « يعاقب لينتقم » ، بل أن « يصلح ليصل الى ماهو أحسن » .. فغيروا اذن صيغة علماء الاجرام على هذا النحو ، فنحن نفهمها ونقبلها على هذا التعديل .

يبقى السبب الثالث والاخير ، وهو نظرية ضرب المثل:

« يجب أن يضرب المثل الرادع ! .. يجب الارهاب بمنظر المصير الذى ينتظر المجرمين ، تلقى به الخوف فى قلوب الذين يميلون الى محاكاتهم ! » .. ان هذه العبارة تكاد تكون بالحرف الواحد تلك الجملة الخالدة التى يرددها ممثلو الاتهام فى « النيابات » الخمسمائة الموجـودة فى انحاء فرنسـا مع تغيير طفيف رنان !

حسـنا .. اننا ننكر أولا أن هناك مثلا وعبرة ، ننكر أن منظر التعذيب يأتى بالنتيجة المرجوة منه ، فهو بدلا من أن يهذب الشعب ، يضعف من روحه المعنوية ويقتل لديه كل شعور ، وبالتالى كل فضيلة . والادلة على هــــذا كثيرة ، يزدحم بها استدلالنا لو أردنا أن نذكرها . ومع ذلك فسوف نسوق واقعة من بين الف واقعة ، ذلك لانها وقعت حديثا جدا ونحن نكتب ، منذ عشرة أيام فقط ، وهى ترجع على التحديد الى يوم ٥ مارس الماضى ، يوم المهرجان .

فقد حدث فى مدينة « سان بول » ، عقب اعــــدام رجل يدعى « لويس كامى » مباشرة ، وكان قد ارتـكب جريمة حريق ، حدث أن جاء نفر من الملثمين ليرقصــوا حول المشنقة وهى لا تزال ساخنة ، وكان ذلك فى يوم من أيام الاعياد المسيحية ! .. فاضربوا المثل اذن التماسا للعبرة !

نعم ، نعم .. انكم تستمسكون بنظريتكم الروتينية فى المثل رغم التجربة . فلنعد اذن الى القرن السادس عشر ، وعليكم أن تكونوا مرعبين حقا ! اعيدوا مختلف أنواع

التعذيب .. اعيدوا الينا « ڤاريناشى » والاشخاص الذين كانوا يكلفون رسميا بالتعذيب .. أعيدوا لنا الصلب والحرق وتمزيق الاوصال واقتلاع الاظافر وقطع الاذن ودفن المرء حيا وغلى أعضاء الجسم والمرء حى يعيش !! أعيدوا لنا عند كل ناصية فى شوارع باريس ، منظر الجلاد البشع كأنه حانوت جديد مفتوح كبقية الحوانيت ، ومزود بصفة مستمرة باللحم الآدمى الطازج ! اعيدوا الينا ساحة الاعدام التى كانت مهيأة فى « مونفوكون » بقواعدها الحجرية الست عشرة ، وجلاديها الجالسين و «بدروماتها» المملوءة بالعظام ، وألواح التعذيب الخشبية ، و«كلاليبها» وسلاسلها ، وخوازيقها ، وغربانها التى تنهش جثثها العفنة !! نعم ، أعيدوا ساحة الاعدام هذه مع المشانق الملحقة بها ورائحة الجثث النتنة التى كانت رياح الشمال الغربى تنقلها وتحملها معها على طول حى « التامبل » فى ضواحى باريس !! اعيدوا الينا صبى جلاد باريس العظيم فى قوته وسطوته واستمراره وجبروته !.. حسنا ! .. هذا هو مثلكم بصورة مكبرة !! هذه هى عقوبة الاعدام مفهومة فهما جيدا . انها طريقة للتعذيب على نطاق واسع وهذا هو الشىء الشنيع المروع !

أوه ! افعلوا ما يفعلونه فى انجلترا ففى انجلترا —وهى بلاد التجارة— يأخذون مهربا الى ساحل « دوفر » حيث يشنقونه ضربا للمثل ، ولضرب المثل أيضا يتركونه معلقا فى حبل المشنقة ! ولكن ، نظرا الى أن تقلبات الجو قد تتلف الجثة ، فانهم يغلفونها فى عناية بقماش مدهون

بالقطران ، وذلك حتى لا يضطرهم الامر الى تجديد هذا الغلاف الا أقل عدد ممكن من المرات .. فيالله من بلد يتوخى الاقتصاد ! بلد يطلون فيه المشنوقين بالقطران !

ومع هذا ، فان ذلك فيه شيء من المنطق ، فهو أكثر الطرق انسانية لفهم نظرية المثل .

ولكن انتم .. اصحيح أنكم جادون حقا ، اذ تعتقدون أنكم تضربون مثلا حين تقطعون رقبة انسان بائس ، بطريقة تعسة في ركن قصي مهجور من مشارف العاصمة؟ قد يكون هذا مقبولا لو أنه تم فى ساحة الاعدام ، وفى وضح النهار ! ولكن ، أن يحدث ذلك فى حقول ضاحية من ضواحى باريس .. فى « سان جاك » ؟ .. وفى الثامنة صباحا والنهار لم يكد يطلع بعد ؟ من ذا الذى يمر من هناك ؟ ومن ذا الذى يرى ذلك ؟ ومن ذا الذى يعرف انكم تقتلون رجلا فى ذلك المكان ؟ ومن ذا الذى يشك فى انكم تضربون مثلا هنالك ؟ مثلا لمن ؟ لاشجار الطريق طبعا !

افلا ترون اذن أن تنفيذكم لحكم الاعدام علنا يتم خلسة؟ افلا ترون اذن أنكم تختبئون ؟ وانكم تخافون وتخجلون من فعلتكم ؟ وانكم تتمتمون على نحو يدعو الى السخرية قائلين أن هذه هى العدالة ؟ انكم فى الواقع خجلون وجلون أيها السادة ، ومزعزعون قلقون ، وغير واثقين من أنكم على حق ، وأن الشك الذى لدى الجميع قد تسرب الى نفوسكم ، وانكم تقطعون الرءوس على سبيل « الروتين » دون أن تعرفوا تماما ما تفعلون ! افلا تشعرون فى قرارة انفسكم انكم قد فقدتم على الاقل الشعور الاخلاقى والاجتماعى

برسالة الدم التى كان أسلافكم القضاة العتاة يؤدونهـا بضمير مطمئن للغاية ؟ وفى الليل ؟ أفلا تتقلبون عـنى وسائدكم أكثر مما كانوا يتقلبون ؟ ان آخرين من قبلكم قد أمروا بتنفيذ العقوبة القصوى ، عقوبة الاعدام ، غير انهم كانوا يعتقدون انهم على حق ، وأنهم عدول وأنهم يحسنون صنعا . ان « جوفينيل ديزرسان » كان يعتقد أنه قاض ، و « ايلى دى توريت » كان يعتقد أنه قاض،و«لوباردومون» و « لارينيى » و « لافوماس » كانوا يعتقدون أنهم قضاة .. أما أنتم .. أما أنتم فلستم موقنين تماما فى قرارة أنفسكم انكم لستم قتلة !

انكم تتركون ساحة الاعدام الى ساحية « سان جاك»، وتفرون من الجمهور الى العزلة ، ومن النهار الى الغسق ولا تقومون بما تقومون به فى ثقة وثبات . ولست اتردد فى أن اقول لكم : انكم تختبئون !

هذه هى كل الاسباب التى تنتحلونها لعقوبة الاعـدام قد تحطمت اذن ، وهذا هو منطق ممثلى الاتهام بأسره قد أصبح عدما ، وهذه كل مرافعات النيابة قد فـنـدت فصارت رمادا . ان أقل لمسة من المنطق لابد أن تذيب كل تفكير معوج .

انه لا ينبغى اذن ان يأتينا رجال الملك بعد الآن يطالبوننا — نحن المحلفين — برءوس جديدة ، نحن الرجال ، وهم يرجوننا فى صوت يداعبنا باسم المجتمع الذى تجب حمايته وباسم الثأر للشعب ، أن نضمن لهم ضرب المثل الرادع ، ان هذا كله ليس الا بلاغة وكلاما أجوف ، ليس الا مجرد بالون منفوخ تكفى وخزة بسيطة من دبوس ، كى تحيله

الى لا شيء ، اذ ليس وراء هذه الثرثرة الحلوة غير قسوة القلب والشراسة والهمجية ، والرغبة فى اظهار التحمس للعمل وضرورة كسب العيش . اصمتوا ايها السادة ، فاننا نحس بمخالب الجلاد تحت أنامل القاضى الحريرية !

انه ليشق علينا أن نفكر فى برود فى أمر مدع عام جرىء . انه رجل يكسب عيشه بارسال الاخرين الى المشنقة ، فهو المورد الرسمى لساحات الاعدام ! ومن ناحية أخرى ، فهو رجل يزعم لنفسه الاسلوب الادبى الجميل ، وهو ذلق اللسان ، أو يحسب أنه كذلك ، ويردد عند الحاجة بيتا أو بيتين من الشعر اللاتينى قبل أن يسوق انسانا الى الموت ، ويحاول جاهدا أن يحدث فى مستمعيه التأثير الذى يريده ، وهو شديد العناية بأمر كرامته — يا للشقاء ! هذا فى الوقت الذى تكون فيه حياة الاخرين فى الميزان ! ان لهذا المدعى العام نماذج : نماذج خاصة يتعذر على المرء أن يبلغ مستواها ، مثل « بلار » ، و « مارشانجى » تماما كما يكون للشعراء نماذج تحتذى مثل « راسين » أو « بوالو » . وفى المناقشات التى تدور فى المحكمة ، تراه يجنح دائما الى ناحية المقصلة ، ولا غرو فهى دوره ، وهى شغله الشاغل . والاتهام الذى يوجهه انما هو عمله الأدبى الذى يزينه بالاستعارات ، ويعطره بالنصوص ، يستشهد بها كى يظفر باستحسان الحاضرين فى الجلسة ، وينتزع اعجاب السيدات ، ولديه ذخيرة من الافكار الشائعة التى لا تزال جديدة تماما على البيئات الريفية ، وله بلاغته فى التعبير ، وأسلوبه الرقيق المصطنع الذى يشبه فى رقته أساليب

الكتاب . انه يكره الكلمة الخالية من الاستعارة ، مقتـا يدانى المقت الذى يضمره لها شعراؤنا المنتمـون الى مدرسة « دوليل » فلا تخشوا اذن أن يسـمى الاشياء بأسمائها فذلك لن يحدث ، اذ أن لديه قناعا كاملا من النعوت والصفات لكل فكرة يمكن أن تثيركم وهى مجردة عارية . ان فى وسعه أن يجعل الامر المفزع مقبولا، ويخفف من حدة سكين المقصلة ، ويوازن الميزان ، ويغلف السلة الحمراء (١) فى غلالة رقيقة من الاستعارات . انه رقيق ومتحفظ ، فهل تتصورونه بالليل فى مكتبه ، وهو يتأنق فى اعداد هذه الخطبة التى ستنصب بسببها المشـنقة بعد ستة أسابيع ؟ هل ترونه وهو يعرق دما وماء كى يحاصر رأس متهم فى أسوأ بند من بنود القانون ؟ وهل تبصرونه وهو « ينشر » رقبة انسان بائس بمنشار قانون اسيء صنعه ؟ ألم تلاحظوا كيف ينقع ثلاثة نصوص أو اربعة سامة فى فيض من العبارات البليغة ، كى يعبر بها ، ويستخرج منها بجهد جهيد موت انسان ؟ أفلا يحتمل أن يكون الجلاد قاعدا القرفصاء عند قدميه فى الظلام ، تحت مكتبه وهو جالس يكتب ، وأنه قد يكف عن الكتابة بين آن وآخر ، ليقول له كما يقول السيد لكلبه : « اهدأ اهدأ ، فسوف تنال عظمتك ! » .

ومن ناحية أخرى ، فقد يكون رجل الادعاء هـذا فى حياته الخاصة رجلا شريفا ، وأبا عطوفا ، وابنا صالحا ، وزوجا مخلصا ، وصديقا وفيا .. الى غير ذلك ممـا

(١) اى سلة المقصلة التى يسقط فيها رأس المحكوم عليه عند قطعه .

تذكره العبارات الطيبة المنقوشة على لوحات القبور في مدافن « لاشيز » ..

فلنأمل اذن أن يأتى اليوم الذى يلغى فيه القانون هذه الوظائف المحزنة ، وجو حضارتنا وحده هو المسئول عن القضاء على عقوبة الاعدام فى فترة معينة من الزمن .

ويغلب على ظننا فى بعض الاحيان أن الذين يدافعون عن عقوبة الاعدام لم يفكروا فيها فيحسنوا التفكير . ولكن ، ضعوا اذن بعض الجرائم فى الميزان ، فهذا القانون العنيف يخول للمجتمع الحق فى أن يسلب من الانسان شيئا لم يمنحه اياه ، وهذه العقوبة انما هى أكثر العقوبات التى لا يمكن اصلاح نتائجها وأشدها استعصاء على الاصلاح !

ذلك أن أمامكم أمرين لا ثالث لهما :

فاما أن يكون الرجل الذى تقضون على حياته لا أسرة له ولا أهل ولا روابط فى هذا العالم ، وفى هذه الحالة لا يكون قد تلقى تربية أو تعليما أو عناية ما ، بنفسه أو بقلبه .. فبأى حق اذن تقتلون هذا اليتيم البائس ؟ أتعاقبونه لانه كان يزحف فى طفولته على أرض لاسند له فيها ولا مرشد ولا معين ؟ انكم تعاقبونه اذن على العزلة التى تركتموه يهيم فيها على وجهه ، وتجعلون من مصيبته هذه جريمة ، وهو الذى لم يعلمه احد ماذا كان عليه أن يفعل ! انه رجل جاهل ، والخطأ ليس خطأه ولكنه خطأ القدر .. انكم تعاقبون بريئا !

واما أن هذا الرجل ذو أسرة . فهل تحسبون عندئذ أن الضربة التى تقطعون بها رقبته لا تصيب الا اياه ؟ وأن

أباه ، وامه ، وأولاده لن يقطروا دما كذلك ؟ كلا ، فأنتم بقتله انما تقطعون رقبات أسرة بأسرها . فأنتم هنا كذلك تعاقبون الابرياء !

ان عقوبة الاعدام عقوبة شاذة عمياء ، على اى وجه نقلبها نجدها تصيب البرىء !

اسجنوا هذا الرجل ، هذا المذنب الذى له أسرة ؛ فسوف يستطيع وهو فى سجنه أن يتابع العمل من أجل ذويه ، اذ كيف يكون فى وسعه أن يعولهم وأن يجعلهم يعيشون وهو راقد فى قاع قبره ؟ ترى هل تفكرون دون أن تأخذكم الرجفة فيما سيئول اليه امر هؤلاء الاولاد الصغار ، والبنات الصغيرات الذين تنتزعون منهم والدهم ، أعنى لقمة العيش ! أم هل تعولون على هذه الاسرة لتزودوا بها الليمان بعد خمسة عشر عاما ؟ ... آه ! يا للابرياء المساكين !

عندما يصدر حكم بالاعدام على عبد رقيق فى المستعمرات ، فانهم يدفعون لصاحبه ومالكه تعويضا مقداره ألف فرنك ! ماذا أيها السادة ؟ انكم تعوضون خسارة السيد ولا تعوضون الاسرة شيئا ! وهنا ايضا بالله عليكم ، الا تنتزعون رجلا من بين ذويه أصحاب الحق فيه ؟ أو ليس هو ملكا لوالده ولزوجته ولابنائه الى حد يبلغ فى القداسة اكبر كثيرا من درجة ملكية السيد لعبده ؟ .

لقد سبق لنا ايها السادة أن اتهمنا قانونكم هذا بأنه اغتيال ، وهانحن أولاء نتهمه الآن بأنه سرقة .

وثمة شيء آخر : فهل فكرتم فى روح هذا الرجل ؟وهل تجرءون على ازهاقها بمثل هذه السرعة ، وبمثل هذا

الاستخفاف ؟ فيما مضى ، على الاقل ، كان هناك شيء من الايمان فى قلوب الناس ، وفى اللحظة الحاسمة كانت نفحة الدين المنبثة فى الهواء تلين أكثر القلوب قسوة وصلابة ، فكان المحكوم عليه فى نفس الوقت تائبا يكفر عن ذنب قد ارتكبه ، وكان الدين يفتح أمامه عالما ، فى نفس اللحظة التى كان المجتمع فيها يغلق فى وجهه عالما آخر . كانت النفوس جميعا تثق بالله ، ولم تكن المشنقة الا حدا من حدود السماء ، أما الآن ، فما هو الامل الذى تضعونه فى مشنقة لا تؤمن بها الغالبية العظمى من الجماهير ؟

ليست هذه من غير شك الا « أسبابا عاطفية » كما يقول بعض الذين يزدرون العاطفة ولا يستمدون منطقهم الا من رءوسهم ، غير أنها فى نظرنا هى أفضل الاسباب ، ونحن غالبا ما نفضل الاسباب العاطفية على العقلية . ويجب علينا الا ننسى من جهة أخرى أن النوعين يتساندان على الدوام ، فكتاب « قانون الجرائم » (١) مأخوذ من كتاب « روح القوانين » (٢) ، و « مونتسكيو » هو الذى انجب « بيكاريا » .

ان المنطق معنا ، والعاطفة معنا ، والتجربة تؤكد وجهة نظرنا كذلك . ففى الدول النموذجية حيث الغيت عقوبة الاعدام ، أخذ مجموع الجرائم الكبرى يقل باطراد عاما بعد عام ، فأدخلوا هذا فى حسابكم .

ومع ذلك ، فاننا لا نطالب فى الوقت الحاضر بالغاء عقوبة الاعدام الغاء تاما وبطريقة فجائية على النحو

---

(١) تاليف (بيكاريا) .

(٢) تاليف (مونتسكيو)

الطائش الذى اتبعه مجلس النواب ، بل نريد ، على العكس ، أن نجرب كل المحاولات ، وأن نتخذ كافة الاحتياطات ، وأن نلزم فى هذا الحذر كل الحذر . ومن جهة أخرى ، فاننا لا نريد الغاء عقوبة الاعدام فحسب ، وانما نريد كذلك تعديلا شاملا لكل أنواع العقوبات من أولها الى آخرها ، من الحبس البسيط الى المقصلة ، مع ملاحظة أن الزمن يعتبر أحد العوامل التى تجب مراعاتها فى عمل كهذا ، حتى يتم على الوجه الاكمل . وفى نيتنا أن نكتب المزيد فى هذا الموضوع شارحين الطرق والافكار التى تبدو فى نظرنا عملية ممكنة التطبيق . ولكن، اذا استثنينا الغاء الاعدام جزئيا فى حالات تزييف النقد ، والحريق ، والسرقة المصحوبة بظروف مشددة ، الى غير ذلك ، فاننا نطالب منذ الآن ، وفى جميع القضايا الكبيرة ، بأن يلتزم رئيس المحكمة بأن يسأل المحلفين هذا السؤال : هل ارتكب المذنب جريمته بدافع من العاطفة او بدافع المنفعة ؟ فاذا جاء رد المحلفين بأن « المتهم قد ارتكب ما ارتكبه بدافع العاطفة » فيجب الا يصدر عليه حكم بالاعدام .. فهذا كفيل على الاقل بأن يبعد عنا بعض أحكام الاعدام التى تثير نفوسنا ، وكان ذلك خليقا بأن ينقذ حياة كل من « أولباخ » و « ديباكير » وهو خليق كذلك بأن ينقذ رقبة من يقف موقف « عطيل » (١) فى المستقبل .

ومن جهة أخرى ، فاننا يجب الا نخدع ، فمسألة عقوبة

(١) اشارة الى جريمة عطيل فى رواية شكسبير المعروفة عندما قتل زوجته بسبب الغيرة المتأججة .

الاعدام هذه تنضج يوما بعد يوم ، وسوف يحلها المجتمع بأسره ، كما نفعل ، قبل انقضاء وقت طويل . فليحذر علماء الجريمة المعاندون ، فقد أخذت أحكام الاعدام تتناقص منذ قرن من الزمان ، وأخذت تجنح تقريبا نحو شيء من اللين والحنان ، وهذا نذير شيخوخة واضمحلال : انه علامة من علامات الضعف ، علامة موت قريب . لقد انتهى زمن تعذيب المتهمين وربطهم على العجلة ، وولى عصر صلب المحكوم عليهم .. بل ان المقصلة ذاتها عبارة عن تقدم ! .. ان هذا لشيء عجيب ! لقد كان « السيد جيوتان » (١) انسانا خيرا حقا !

نعم .. ان هذه الآلة ذات الاسنان والتروس الرهيبة التى التهمت عددا ضخما من الرءوس ـ آلة « فارمناتشى » و « فوجلانس » و « دولانسكر » و « ايزاك لوازيل » و « أوبيد » و « ماشوه » ـ هذه الآلة قد بدأت تضمحل .. بدأت تهزل .. بدأت تموت !!

هاهى ذى ساحة الاعدام لا تريدها ، لان هذه الساحة تريد أن ترد لنفسها اعتبارها .. ان شاربة الدماء العجوز قد سلكت فى شهر يوليو سلوكا حسنا (٢) ، فهى تريد منذ الآن أن تحيا حياة أفضل ، وأن تظل جديرة بصنيعها الاخير (٣) .. ان الحياء يعود اليها ، وهى التى كانت

(١) الدكتور (جيوتان) مخترع المقصلة وقد عرفت باسمه .

(٢) كناية عن أن المقصلة لم تقتل احدا فى ذلك الشهر بعد أن صدر الامر بايقاف تنفيذ كل أحكام الاعدام الى أجل غير مسمى كما سبقت الاشارة الى ذلك ـ المترجم .

(٣) اى بعملها الصالح فى شهر يوليو .

قد حلت محل المشانق من ثلاثة قرون ، فهى تخجل من مهنتها السابقة ، وتود أن تفقد اسمها البشع . انها تطلق الجلاد .. وتغسل الدم من فوق « بلاطها » .

وفى هذه الساعة ، تنفذ عقوبة الاعدام خارج باريس ! فلنقلها هنا اذن بصراحة ، فخروجها من باريس يعنى خروجها من المدنية .

ان جميع الاعراض فى صالحنا ، ويبدو كذلك أن هذه الآلة البشعة ، أو بالاحرى هذا الوحش المصـــــنوع من الخشب والحديد ، والذى هو تحفة الدكتور « جيوتان » يبدو أن هذه الآلة تغدر وتقاوم . اننا اذا نظرنا من زاوية معينة الى هذا العدد من أحكام الأعدام الرهيبة التىنفذت وسردنا تفاصيلها آنفا ، لوجدنا أنها تعتبر دلالات ممتازة، فالمقصلة تتردد وتحجم وتقصر فى تأدية وظيفتها ، وهاهو ذا بناء عقوبة الاعدام العتيد العتيق بأسره قد أخـــذ يتفكك ويتداعى .

وسوف ترحل هذه الآلة البغيضة من فرنسا ، فنحن نقدر ذلك تقديرا ونعول عليه ، وهى سوف ترحل عرجاء، باذن الله ، لأننا سنحاول جاهدين أن نوجه اليها ضربات قاصمة .

فلتذهب اذن عند قوم آخرين ، لتذهب عند شـــعب همجى يقبل أن يستضيفها .

لقد كان البناء الاجتماعى يرتكز فيما مضى على ثلاث قواعد هى : القسيس ، والملك ، والجلاد . ومنذ زمـن بعيد ، ارتفع صوت يقول : « لقــــد ذهب ســــلطان الاساقفة ! » ..

وفى السنوات الاخيرة صاح صوت آخر يقول : « ان الملوك ذهبوا ! » .. والآن ، حان الوقت ليرتفع صوت ثالث ويقول : « ان الجلاد راحل ! »

وهكذا ، يكون المجتمع القديم قد انهار حجرا بعد حجر ، وتكون العناية الالهية قد قوضت أركان الماضى بأسره .

ان الذين ندموا على تقلص نفوذ الدين ، استطعنا ان نقول لهم : ان الدين باق ، والذين يندمون على ذهاب الملوك نستطيع أن نقول لهم : ان الوطن باق . أما الذين سيندمون على ذهاب الجلاد فليس لدينا مانقوله لهم .

ولا يحسبن احد أن النظام سوف يختفى باختفاء الجلاد فسوف لا تتداعى عمد المجتمع الجديد لان هذا المفتاح البشع المشئوم ينقصها ، وليست المدنية الا سلسلة من التغييرات المتتابعة ، فماذا أنتم واجدون عندئذ ؟

انكم ستشهدون تغيير العقوبات ، وسوف يدخل قانون المسيح الرحيم اخيرا فى اللوائح المعمول بها فى المحاكم ويشع من نوره عليها . اننا سننظر الى الجريمة على انها مرض ، وسوف يكون لهذا المرض أطباؤه الذين سيحتلون اماكن قضاتكم ، ومستشفياته التى ستحتل اماكن ليماناتكم .. ان الحرية والصحة ستجتمعان معا .

نعم ، اننا سنصب البلسم والزيت حيث كان يطبق الحديد والنار . وسوف نعالج هذا المرض بالرحمة والاحسان بعد ان كان يعالج بالغضب والانتقام .

وسوف يكون ذلك بسيطا ورائعا حقا .

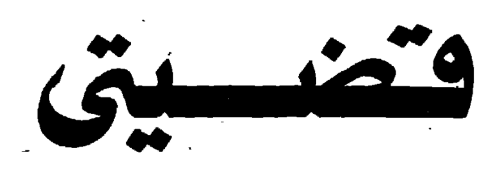
فالاحسان يحل مكان الانتقام .

والرحمة تحل محل القتل .

وهذا كل مانهدف اليه .

فى ١٥ مارس عام ١٨٣٢

الفصل الاول :



فى سجن "بيستر"

محكوم على بالاعدام !

آه ! هاقد مضت على خمسة أسابيع وأنا أقيم وحدى مع هذه الفكرة ، وحدى دائما ، أتجمد رهبة لوجودها معى ، وأرزح تحت وطأتها على الدوام !

وقديما ، كنت رجلا كأى رجل آخر . وأقول «قديما» لان هذه الاسابيع الخمسة تبدو لى وكأنها دهر طويل ! كانت لدى فى كل يوم فكرة ، بل فى كل ساعة ، وفى كل دقيقة ، وكانت نفسى الفنية الشـــابة حافلة بالنزوات والتصورات ، تتسلى بأن تسردها على واحدة بعد أخرى، بلا ترتيب وبلا نهاية ، وهى تطرز بالنقوش التى لا تنتهى هذا القماش الرفيع المتين الذى تنسجه الحياة .

كان راسى وقتئذ عامرا بالفتيات الشابات ، وبملابس المطارنة البديعة ، وبالمعارك الرابحة ، والمســارح التى تغمرها الضوضاء والاضواء . وكان عامرا كذلك بالفتيات الصغيرات وبنزهات فى ظلام الليل الداجى تحت أغصان شجر الكستناء الطويلة . لقد كان فى خيالى عيد دائم

وكنت أستطيع أن افكر فيما اريد فى اى وقت .. فقد كنت حرا !

اما الآن فانى أسير . فجسمى مكبل بالحـــديد فى زنزانة ، ونفسى سجينة فى فكرة مروعة دامية لا ترحم ! ولم يعد لدى سوى فكرة واحدة ، سوى اقتناع واحـد ويقين واحد : انى محكوم على بالاعدام !

ومهما فعلت ، فان هذه الفكرة الرهيبة هنا دائما ، الى جوارى ، وكأنها شبح جهنمى من الرصاص يقف غيـورا بمفرده امامى انا البائس ، ويواجهنى وجها لوجه ، فيطرد عنى كل تسلية ويهزنى هزا عنيفا بيدين فى مثـل برودة الثلج كلما اردت أن أدير رأسى او أن اغمض عينى . ان هذه الفكرة المفزعة تتسلل الى بكل الطرق ، فى الوقت الذى تريد نفسى فيه ان تهرب منها ، وتمتزج كنغمـــة رهيبة بكل الالفاظ التى توجه الى ، وتلتصق بى فى أسوار زنزانتى الكئيبة ، وتطاردنى فى يقظتى ، وتتجسس على فى منامى المضطرب ، ثم تظهر مرة أخرى فى أحلامى فى صورة سكين !

لقد استيقظت الآن فزعا بسببها وانا اقول فى نفسى : « انه ليس الا حلما ! » .. بحسنا ! فحتى قبل أن تجد عيناى الثقيلتان متسعا من الوقت كى تنفتحا تماما لتريا هذه الفكرة المحتومة مكتوبة فى هذا الواقع المروع الذى يحيط بى على بلاط زنزانتى الرطب المبلل ، وفى ضـــوء مصباحى الليلى الخافت ، وفى نسيج ردائى الخشـــن الردىء ، وعلى وجه الحارس المظلم الذى كانت «زمزميته»

تلمع من خلال القضبان الحديدية .. حتى قبل أن تجد عيناى الثقيلتان متسعا من الوقت لتريا كل ذلك ، فقد بدا لى أن صوتا قد همس فى أذنى يقول : « أنت محكوم عليك بالاعدام ! »

كان ذلك فى صبيحة يوم جميل من أيام شهر أغسطس، وكان قد مضى على موعد بدء نظر قضيتى ثلاثة أيام . كان اسمى وجريمتى يجمعان خلالها فى كل صباح جمعا غفيرا من المتفرجين ، كانوا يتهافتون على المقاعد فى قاعة الجلسة كما تتهافت الغربان على جثة عفنة ! ثلاثة أيام كانت استعراضات القضاة والشهود والمحامين ، وممثلى الاتهام باسم الملك ، تمر خلالها ثم تمر من أمامى ، فتثير السخرية تارة ، وتارة تكون دامية ، ولكنها كئيبة ومعتمة على الدوام .

ولم أستطع أن أنام فى الليلتين الاوليين من أثر القلق والرعب ، ولكنى نمت فى الليلة الثالثة من الضيق والكلل . وكنت قد تركت المحلفين وهم يتداولون فى منتصف الليل فأعادنى الحراس الى زنزانتى حيث سقطت من فورى على قشها فى سبات عميق ، فى سبات النسيان . فكانت هذه أول ساعة أصبت فيها شيئا من الراحة منذ عدة أيام .

وكنت لا ازال مستغرقا فى أعماق هذا السبات عندما اتى السجان ليوقظنى . وفى تلك المرة ، لم يكن وقع قدميه الثقيلتين بحذائه الغليظ ، ولا صليل رزمة المفاتيح التى كان يحملها دائما معه ، ولا قرقعة الاقفال

الخشان ، لم يكن هذا كله كافيا لايقاظى ، وانما كان عليه أن يستعين بصوته الجهورى الخشن النبرات لينتزعنى من نومى المحموم ، وأن يقبض على ذراعى ليهزنى بيده الغليظة وهو يقول لى فى أرهاب :

ــ قم اذن !

ففتحت عينى وانتفضت مذعورا لاجد نفسى جالسا على القش ! وفى تلك اللحظة ، رايت من خلال النافذة الضيقة المرتفعة فى زنزانتى ، قطعة السماء الوحيدة التى كان يمكننى أن أراها من بعيد ، ورأيت هذا الضوء الاصفر الذى يبدو شمسا للأعين ، التى ألفت ظلام السجون .. لشد ما أحب الشمس !

وتمتمت أقول للسجان :

ــ ان الطقس جميل !

فمكث الرجل صامتا لحظة دون أن يرد على بحرف ، وكأنه كان يسائل نفسه عما اذا كان هذا الذى أمامه يستحق منه أن يقول له أية كلمة ، ثم غمغم يقول فجأة فى شيء من الجهد :

ــ هذا محتمل .

وبقيت بغير حركة ، وروحى نصف نائمة ، وفمى يبتسم وعيناى لا تتحولان عن هذا الشعاع الذهبى الرقيق الذى كان يزين السقف .

وعدت أكرر قائلا :

ــ هذا يوم جميل .

فاجابنى السجان قائلا فى حزم :

– نعم .. انهم ينتظرونك

فنقلتني هذه الكلمات القليلة ، التي تشبه الخيط الذي يقطع طيران الحشرة ، في عنف الى عالم الحقيقة والواقع وفجأة رأيت في مثل وميض البرق قاعة محكمة الجنايات المعتمة ، وقفص الاتهام ، وثلاثة صفوف من الشهود تنطق وجوههم بالغباء ، والجنديين الواقفين عن يميني وشمالي « والارواب » السوداء تتحرك هنـــا وهناك ، ورءوس المتفرجين تبدو كالنمل عند نهاية القاعة في الظل ، واعين هؤلاء المحلفين الاثنى عشر المثبتة على ، الذين ســهروا بينما كنت نائما !

ونهضت من فوق القش ، وأسناني تصطك ، ويداي ترتجفان ، ولا تعرفان أين تجدان ملابسي ، وكـانت ساقاي متخاذلتين ، لا تقويان على حملي ، فتعثرت عنـد أول خطوة خطوتها وكأني حمال يحمل حملا فوق طاقته ، ومع ذلك فقد تبعت السجان .

وكان الجنديان في انتظاري على باب الزنزانة .وماكدت أخرج منها حتى وضعا في يدي قيدا حديديا له قفـل صغير معقد ، اقفلاه في عناية ، فتركتهما يفعلان ، فقد كان قيدي آلة توضع فوق آلة .

***

واجتزنا فناء السجن الداخلي ، فبعث هواء الصــباح المنعش في أوصالي شيئا من النشـاط ، ووجدت نفسي أرفع رأسي الى أعلى . كانت السماء صافية الاديم ، وكانت اشعة الشمس الدافئة التي تقطعها المداخن المرتفعة ترسم

مثلثات كبارا من الضوء من فوق جدران السجن المعتمة العالية . لقد كان الجو جميلا حقا .

وصعدنا سلما حلزونيا ثم مررنا خلال دهليز من بعده دهليز آخر ، ثم ثالث ، حتى انتهينا الى باب منخفض فتح على الفور ، فلفح وجهى هواء ساخن تختلط فيـــه الضوضاء . كان هذا هو جو انفاس المحتشدين فى قاعة محكمة الجنايات .

وما كدت أبدو حتى حدثت ضوضاء صـــادرة مــن قعقعة الاسلحة المختلطة بأصوات الحاضرين ، وتحركت المقاعد فى جلبة عالية ، وفتحت الحواجز محدثة صريرا كئيبا . وكان يبدو لى وانا أعبر القاعة الطويلة بين كتلتين من الجماهير ، وصفين من الجنود ، أننى كنت المركز الذى ترتبط به الخيوط التى كانت تحرك كل تلك الوجـــوه المتيقظة المشرئبة نحوى .

ولاحظت فى تلك اللحظة انى لم اكن مكبلا بالحديد ، لكنى لم استطع أن أذكر أين أو متى كانوا قد نزعوا عنى قيدى ؟

وساد عندئذ صمت عميق . وكنت قد وصلت الى مكانى حينما سكنت الضوضاء الصادرة من الجمهور ، فسكتت ايضا الضوضاء التى كانت تدور مع أفكارى ، وفهمت من فورى فى وضوح مالم اكن اتصوره الا مشوشا غامضا منذ لحظات : أدركت أن اللحظة الحاسمة قـــد حانت وانى أحضرت الى هناك لسماع النطق بالحكم على .

وليشرح ذلك من يستطيعه منكم ، فان الطريقـــة التى اوحت الى بهذه الفكرة لم تبعث فى نفسى الرعب ! كانت

النوافذ مفتوحة على مصاريعها ، وضوضاء المدينة تصل مع الهواء من الخارج دون حائل . وكانت القاعة مضيئة كما لو كان يحتفل بعرس وكانت أشعة الشمس المرحة ترسم صورا لمصاريع النوافذ هنا وهناك ، تارة طويلة جدا على أرض القاعة ومكسورة تارة اخرى عند زوايا الجدران .

وكان القضاة جالسين في نهاية القاعة وقد ارتسمت على وجوههم علامات الرضا والامتنان ، وربما كان السبب فى ذلك هو سرورهم بأنهم كانوا على وشك الانتهاء . وكان انعكاس زجاج احدى النوافذ يسقط على وجه رئيس المحكمة ويضيئه بعض الشيء فيبدو عليه شيء من الطيبة والهدوء ، بينما أخذ أحد معاونى النيابة يتبادل حديثا يغلب عليه المرح مع سيدة جميلة ترتدى قبعة وردية اللون كان قد حاباها باجلاسها خلفه مباشرة ، وكان الرجل يتحدث اليها وهو يمسك بياقة روبه ويعبث بها .

وكان المحلفون وحدهم هم الذين تبدو على وجوههم آثار التعب الشديد ، ولكن هذا فيما يبدو كان سببه انهم قد سهروا الليل بأكمله ، وكان بعضهم يتثاءب ، ولم يكن فى مظهرهم مايدل على أنهم رجال كانوا قد قرروا لتوهم الحكم بالاعدام ، ولم أقرأ فى وجوه هؤلاء البورجوازيين الطيبين الا رغبة كبرى فى النوم .

وكانت هناك أمامى نافذة مفتوحة على مصراعيها ،كنت أسمع من خلالها بائعات الزهور وهن يضحكن على رصيف نهر « السين » ، وعلى حافة ركن النافذة ادهشتنى رؤية

نبتة صغيرة صفراء يغمرها شعاع من الشمس وكانت تلعب مع الهواء فى ثغرة من ثغرات حجر الجدار .

فكيف يمكن أن تنبت فكرة كئيبة بين كثير من تلك الاحساسات الجميلة ؟ . لقد كان يغمرنى الهواء والشمس فكان يستحيل على أن افكر فى شىء آخر غير الحرية . ان الامل كان يشع فى نفسى كما يشع من حولى ضوء النهار ، وانتظرت النطق بالحكم على وانا مطمئن كما ينتظر المرء الخلاص والحياة .

ووصل المحامى الموكل بالدفاع عنى فى خلال ذلك ، وكانوا فى انتظاره . وكان الرجل قد تناول غداء فاخرا فى شهية كبيرة ، وما كاد يصل الى مكانه حتى مال نحوى مبتسما وهو يقول :

ـ اننى آمل

فاجبته فى خفة وانا أبتسم ايضا :

ـ اليس كذلك ؟

فقال المحامى :

ـ نعم ، لست اعرف شيئا عن قرارهم بعد ، ولكنهم قد استبعدوا فكرة سبق الاصرار دون شك ، فلن تكون هناك حينئذ الا الاشغال الشاقة المؤبدة .

فاجبته قائلا فى سخط :

ـ ماهذا الذى تقول ياسيدى ؟ .. اننى أوثر الموت مائة مرة !

نعم .. الموت ! ومن ناحية اخرى ، فان صوتا داخليا لا اعرفه كان يكرر فى نفسى هامسا : « ما الخطر الذى

أتعرض له بقولى هذا ؟ هل سبق أن نطق من قبل بحكم الاعدام الا فى منتصف الليل على ضوء المشاعل ، وفى قاعة معتمة سوداء فى ليلة من الليالى الباردة ، ليالى الشتاء المطيرة ؟.. ولكن ... فى شهر أغسطس ، وفى الساعة الثامنة صباحا ، وفى يوم جميل كهذا ، ومع هؤلاء المحلفين الطيبين .. كلا ، هذا مستحيل ! وكانت عيناى ترتدان لتقعا على الزهرة الصفراء الجميلة وهى تتمايل فى الشمس .. »

وفجاة ، دعانى الى الوقوف رئيس المحكمة الذى لم يكن ينتظر سوى حضور المحامى ، فوقف الجنود شاكى السلاح ووقف جميع الحاضرين فى نفس اللحظة كما لو كان ذلك قد حدث بتأثير قوة كهربائية ! وكان ثمة وجه جامد لا تعبير فيه يجلس الى منضدة فى أسفل هيئة المحكمة ، وكان هذا على ما أظن كاتب الجلسة ، الذى بدأ الكلام فأخذ يتلو القرار الذى كان المحلفون قد نطقوا به فى غيبتى . ولم تكد كلماته تطرق أذنى حتى انبثق من كل اعضائى عرق بارد واستندت الى الجدار لامنع نفسى من السقوط .

وقال رئيس المحكمة يسأل المحامى :

ـ هل لديك ما تقوله يا أستاذ خاصا بتطبيق العقوبة ؟

وكنت استطيع انا ان أقول الكثير ، غير أن ذهنى ظل خاويا لم يخطر به شىء ، وبقى لسانى معقودا وملتصقا بحلقى .

ونهض محامى الدفاع ففهمت أنه كان يحاول أن يخفف

قرار المحلفين ، بأن يستبدل بحكم الاعدام العقوبة الاخرى التى كنت قد احسست بأن كرامتى قد جرحت حينما سمعته يتحدث عنها منذ لحظة كشىء يأمله .

ولابد أن سخطى كان شديدا بحيث ظهر خلال المشاعر الكثيرة التى كانت تتضارب فى خاطرى ، وأردت أن أكرر للمحامى فى صوت مرتفع ماكنت قد قلته له من قبل :

« انى أوثر الموت مائة مرة ! » ، غير أن أنفاسى تقطعت ، ولم استطع الا أن أوقفه بجذبه من ذراعه فى عنف وأنا أصيح فيه بقوة المحموم : « كلا ! »

وقاوم المدعى العام المحامى بكل قواه ، فكنت أستمع الى نضاله فى سرور ينطوى على الغفلة والغباء ! وخرج القضاة بعد لحظات ثم عادوا ثانية الى مقاعدهم ، وقرأ رئيس المحكمة نص الحكم الذى سبق أن حكم به على !

وقال جمهور الحاضرين : « محكوم عليه بالاعدام ! » . وفى الوقت الذى كان الحراس يقودوننى فيه الى خارج قاعة الجلسة ، اندفع كل هذا الجمهور من خلفى فى دوى كأنه صوت بناء ينهار ، بينما كنت أسير متعثرا فى خطواتى كالثمل وقد تملكنى الذهول ! ان ثورة كانت قد انطلقت فى نفسى منذ لحظة ، وكنت أشعر حتى صدور الحكم بأننى أستنشق الهواء ، وبأن قلبى ينبض ، وبأنى أعيش فى نفس الوسط الذى يعيش فيه غيرى من الناس . ولكنى الآن كنت أميز فى وضوح حاجزا يفصل بينى وبين العالم ، ولم يكن يظهر لى شىء على نفس الصورة التى كان يبدو لى فيها من قبل : فهذه النوافذ العريضة

المضيئة ، وهذه الشمس الجميلة الحانية ، وهذه السماء الزرقاء النقية ، وهذه الزهرة الجميلة ، كل ذلك بدا فى عينى أبيض شاحبا بلون الكفن .. وهؤلاء الرجال والنساء والاطفال الذين كانوا يتزاحمون من حولى ويندفعون فى طريقى كانوا يتراءون لى كالاشباح !

فى العربة السوداء

وكانت هناك عربة قذرة سوداء مقفلة بقضبان من حديد تنتظرنى عند أسفل السلم .. وألقيت وأنا أصعد اليهـا نظرة عابرة على الميدان ، فرأيت المارة يعدون نحوها وهم يصيحون قائلين : « محكوم عليه بالاعدام ! » واستطعت أن أميز من خلال السحابة التى كان يبدو لى أنها تفصل بينى وبين الاشياء ، فتاتين شابتين كانتا تتابعانى بأعين نهمات ، فقالت صغراهما وهى تصفق بيديها : « حسنا ! سيكون تنفيذ الحكم فيه بعد ستة أسابيع ! »

أنا محكوم على بالاعدام !

حسنا ! ولم لا ؟ انى أذكر أننى قرأت ذلك فى كتاب من الكتب لم يكن به شىء حسن سوى هذه العبارة : « أن البشر جميعا محكوم عليهم بالاعدام ، وانما يختلف وقت تنفيذ الحكم ! » . فماذا الذى قد تغير كثيرا اذن فى موقفى ؟

كم من أناس قد ماتوا بينما كانوا يعدون أنفسهم لحياة طويلة منذ اللحظة التى نطق فيها بالحكم على ؟ وكم من شباب حر فى أوج الصحة قد سبقنى وكان يعتزم الذهاب فى اليوم المحتوم ليرى راسى وهو يهوى فى ساحة الاعدام!

وكم من هؤلاءالناس الذين يمشون ويستنشقون نسيم الحرية وهم يخرجون ويدخلون على هواهم ، كم من هؤلاء سوف يسبقني كذلك الى عالم الموت !

ثم .. على أي شيء أندم في الحياة ؟ أهو اليوم المظلم ؟ أم هو الخبز الاسود في الزنزانة ، مع الطعام الهزيل الذي يلقى الي في الدلو ، دلو المحكوم عليهم بالاعدام ؟ أم الغلظة والمعاملة الفظة اللتان يعاملني بهما السجانون والحراس ، وانا الذي ربيت تربية مرهفة ناعمة ؟ أم هو حرماني من رؤية أي مخلوق آدمي يعتقد أني أستحق أن يبادلني الحديث ؟ أم ان ارتجف بغير انقطاع مما فعلته ومما سيفعلونه ؟ أليس هذا تقريبا هو كل الخير الذي يستطيع الجلاد أن ينتزعه مني ؟

آ ! ولكن هذا لا يهم .. انه شيء فظيع !

نقلتني العربة السوداء الرهيبة الى هنا ، في سجن « بيستر » البشع ، وهو مبني يبدو على مظهره بعض العظمة عند رؤيته من بعيد ، فهو يظهر في الافق على جبهة تل ، ويحتفظ بشيء من روعته الملكية السابقة اذا نظرت اليه من بعيد ، ولكنه يصير كوخا حقيرا عندما تقترب منه ! فأبراجه التي سقطت تحت مستواها الاصلي تجرح بمنظرها العين ، ولست أدري أي شيء حقير مخجل لطخ واجهاته الملكية بالقذارة ، اذ تبدو كأن جدرانها مصابة بالجذام ، ونوافذه لم يبق بها زجاج ولا مصاريع ، ولكنه كتل ضخمة من قضبان حديدية متقاطعة يلتصق بها هنا وهناك وجه شاحب يبدو عليه الشرود ، وجه لشخص محكوم عليه أو وجه لشخص مجنون !

انها الحياة من قرب !

العـودة إلى بيســتر

ما كدت أصل الى سجن « بيستر » حتى تلقفتنى ايد حديدية ، وضوعفت الاحتياطات فى الحال . فلا سكين مع الطعام ولا « شوكة » ، بل قميص المحكوم عليــه فحسب ، وهو عبارة عن كيس من التيل الخشن ليس له كمان سجنت بداخله ذراعاى !

انهم كانوا مسئولين عن بقائى حيا ، وكنت قــد استأنفت الحكم ، وهذا الاستئناف قد يستغرق من ستة اسابيع الى سبعة اسابيع غالية الثمن ، وكان من المهــم ان يحتفظوا بى سليما معافى لساحة الاعدام !

وعوملت فى الايام الاولى بلطف كان يبدو لى رهيبــا مفزعا ، فظرف السجان ورقته رائحة من روائح المشنقة ، ثم مالبثوا أن تغلبت عليهم العادة لحسن الحظ فعاملونى فى غلظة كما يعاملون غيرى من المساجين ، ولم يعودوا يميزوننى على غير المألوف منهم بأدبهم الذى كان يجعلنى أتصور الجلاد واقفا أمامى على الدوام . ولم يكن ذلك هو التحسن الوحيد الذى طرأ على موقفى ، بل ان شبابى ، ودعتى ، وعناية قسيس السجن بأمرى ، وبوجه خــاص

بعض الكلمات اللاتينية التي كنت اوجهها الى السجانين فلا يفهم من أمرها شيئا ، كل ذلك قد فتح لي باب النزهة مرة في كل أسبوع مع المسجونين الآخرين ، وذهب بالقميص الخشن الغليظ الذي كان يشل حركتي . كما أعطيت كذلك مدادا وورقا وقلما ومصباحا بعد تردد ليس بالقصير .

وكانوا يطلقونني في كل يوم أحد بعد القداس في فناء السجن ساعة الفسحة حيث أتبادل الحديث مع المسجونين، وكان هذا بالنسبة الى شيئا ضروريا للغاية . حقا ان هؤلاء البائسين اناس طيبون ، وهم يقصون على وقائعهم وحيلهم ، وهي أمور ترسل في الجسم رعدة قاسية ولكني كنت أعلم انهم يفاخرون .

وكان هؤلاء المسجونون يعلمونني أن أتحدث بلغة السجون كما يقولون ، وهي لغة مكتملة النمو مشتقة من اللغة الجارية كنوع من الورم الخبيث ، أو كالسرطان في الجسد ، لبعض الفاظها وقع عنيف وجمال مخيف ، وذلك مثل قولهم : « انه يمشي على العنب الاحمر » ، ويعنون به أن الدم في طريقه . وقولهم : « يتزوج الارملة» ويعنون به أنه يشنق كما لو كان حبل المشنقة أرملة فقدت كل أزواجها السابقين المشنوقين !

ان رأس اللص له في السجن اسمان : « السربون » عندما يفكر ويعقل وينصح بالجريمة ، و « المقطوع » عندما يقطعه الجلاد ! وفي بعض الاحيان ، تكون الفاظ السجن هذه شبيهة بروح المسرحية الخفيفة المرحة

« الفودفيل » ، كقولهم : « شال من خيزران » « عربة
« الزبال » .. و (الكاذبة) و (اللسان) !

وفوق هذا ، ففى كل لحظة وفى كل مكان تسمع كلمات غريبة وعجيبة تتسم بالقبح والقذارة ، ولا ادرى من أين تخرج ، مثل : الدرع « الجلاد » ، و « الخازوق » « الموت » و (الصندرة) (ساحة الاعدام) ! .. ألفاظ تبدو لى كالعناكب والأبراص ، حينما يسمعها المرء تترك فى نفسه الاثر الذى يحدثه الشىء القذر المغبر ، وكأنها كتلة من الخرق البالية التى تنفض امام عينيه .

ومهما يكن من شىء ، فان هؤلاء الرجال يرثون لحالى ، وهم وحدهم الذين يفعلون ذلك ، اذ ان السجانين والحراس — ولست أحقد عليهم — يتحدثون ويضحكون ، ويتكلمون عنى فى وجودى وكأننى شىء يمت الى عالم الجماد !

الفصل الثانى :

أيام لن تعود

مــــذكـــــراتى

وقلت فى نفسى :

لماذا لا أكتب مادامت لدى أدوات الكتابة ؟ ولكن ، ماذا أكتب ؟ اننى سجين بين اربعة جدران ضخمة من الحجر العارى البارد الحزين ، حيث لا حرية لخطواتى ولا أفق يمتد أمام عينى ، ولا تسلية لى طول الوقت الا أن أتتبع بطريقة آلية مايجرى خارج زنزانتى من خلال كوة الباب المربعة الصغيرة البيضاء ، وما كانت تعكسه أمامى مباشرة على الحائط المظلم ، وكما كنت أقول منذ برهة ، فانى كنت وحدى وجها لوجه مع فكرة الجريمة والعقاب ، فكرة القتل والموت ! فهل سيكون لدى ما أقوله وأنا الذى صرت انسانا لا داعى لوجوده فى هذا العالم ؟ وماذا عساى أن أجد فى هذا الانسان الذابل الخاوى ؟

ولكن .. لم لا ؟.

اذا كان كل شىء من حولى يسير على وتيرة واحدة ، ولا لون له على الاطلاق ، أفلا تضطرم فى أعماق نفسى عاصفة عاتية ، وكفاح مستعر ، ومأساة دامية ؟ ان هذه الفكرة الثابتة التى تستحوذ على نفسى تتبدى أمامى فى

كل ساعة بل في كل لحظة في شكل جديد ، وهي تزداد كآبة وتلوثا بالدماء ساعة بعد ساعة كلما اقترب المصير المحتوم ! فلماذا لا احاول ان اقول لنفسي كل ما احس به، واقص عليها ما أكابده من مشاعر عنيفة ، بعضها يحاصرني فعلا وبعضها مجهول لا يزال ينتظرني في موقفي هذا الميئوس منه الذي أجد نفسي فيه الآن .

ان الموضوع غني مافي ذلك شك ، ومهما بدا لي ماتبقى من عمري قصيرا فسوف يكون في الهواجس والرعب والعذاب الاليم ، الذي يملؤه منذ هذه الساعة الى أن تحين ساعتي الاخيرة ، مايكفي لاستهلاك هذا القلم ونفاد هذا المداد كله . ومن جهة اخرى ، فان الوسيلة الوحيدة التي استطيع بها أن اخفف بعض الشيء من آلام هذه الهواجس هي أن الاحظها ثم أصفها ، فهذا خليق بأن يسرى عني بعض التسرية .

وفوق هذا ، فان ما سأكتبه هكذا قد لا يكون عديم النفع . فهذه المذكرات التي تسجل آلامي ساعة فساعة ، ودقيقة فدقيقة ، وعذابا اثر عذاب — لو اني وجدت في نفسي القدرة على تدوينها حتى اللحظة التي سوف يستحيل على جثمانيا أن أتابع كتابتها — اذ أن قصة مشاعري هذه ستبقى حتما ناقصة بلا نهاية وان كانت كاملة من حيث طاقتي — هذه المذكرات الن تحمل في طياتها عظة كبيرة وعميقة ؟ الن يكون في هذا السجل المدون عن الفكر وهو يحتضر ، وعن الآلام التي تتزايد باستمرار .. هذا النوع من التشريح العقلي لانسان محكوم عليه بالموت

.. الن يكون فيه أكثر من درس لأولئك الذين يصدرون هذا الحكم ؟

نعم .. فقد تجعلهم قراءة هذه المذكرات أقل تسرعا ، وتحملهم على شيء من التروى فى المستقبل عندما يكون الامر متعلقا باسقاط راس يفكر ، راس انسان ، فيما يسمونه ميزان العدالة ! قد لا يكون هؤلاء التعساء فكروا قط فى هذا التتابع البطيء لالوان العذاب التى تنطوى عليه هذه الصيغة الموجزة التى ينطق بها فى استخفاف : « الحكم بالاعدام ! » ترى هل وقفوا قط مرة واحدة ، واحدة فحسب ، عند هذه الفكرة الاليمة ليروا ان فى هذا الانسان الذى يقطعون رقبته ذكاء كان قد اعتمد على الحياة ، وأن فيه روحا لم تكن قد تهيأت بعد للموت ؟

كلا ! انهم لا يرون فى هذا كله الاسكينا مثلثة الشكل تهوى راسيا على رقبة الشخص المحكوم عليه بالموت ، وهم يحسبون دون شك أنه لا شيء هناك بالنسبة اليه ، لا من قبل ذلك ولا من بعده !

ان هذه المذكرات سوف تظهر لهم أنهم مخطئون ، فقد يتاح لها أن تنشر فى يوم من الايام ، فتفتح أعينهم لحظات على آلام النفس التى لا يشك فيها أحد منهم . انهم يفخرون بقدرتهم على القتل دون أن يتألم الجسم تقريبا بسبب سرعة المقصلة فى انجاز مهمتها الدامية ، غير أن هذا ليس كل مافى الامر ، اذ ما قيمة الالم البدنى اذا قيس بآلام النفس ؟

اننا لنشمئز من هذه القوانين الموضوعة على هذه الصورة التى تتحرك انفسنا شفقة بها ، وسوف يأتى يوم

تكون فيه هذه المذكرات ، وهى الاسرار الاخيرة لانسان بائس ، قد أسهمت فى هذا المضمار .. اللهم الا اذا عبثت الريح بعد موتى بهذه الاوراق الملطخة بالوحل فى فناء السجن ، أو لصقها سجان على شكل نجوم فى نافذة مكسورة الزجاج فى حجرته فتتعفن هناك تحت قطرات المطر .

وسواء أكان ما أكتبه هنا يمكن أن يكون يوما ما نافعا لغيرى ، ام انه اوقف القاضى وهو يهم بالنطق بالحكم ، ام انقذ البائسين من ابرياء ومذنبين ، أنقذهم من الاحتضار الذى حكم به على .. فلماذا كل ذلك ؟.. وما فائدته ؟.. وما أهميته ؟ .. ماذا يهمنى أن تقطع رءوس أخرى بعد أن يكون رأسى قد قطع ؟.. هل استطعت حقا أن افكر فى هذه الفكرة الجنونية ، فى ان اقذف بالمقصلة على الارض واهدمها بعد ان اكون قد صعدت عليها ؟ هل لى ان اسألكم قليلا : ماذا سيعود على من تحطيم المقصلة أن أذهب ضحية لها ؟

آه ! ان الشمس ، والربيع ، والحقول المملوءة بالازهار ، والطيور التى تستيقظ فى الصباح ، والغيوم ، والاشجار ، والطبيعة ، والحرية ، والحياة .. كل ذلك لم يعد لى منه شيء !

رباه ! .. انه أنا الذى يجب انقاذه ! هل صحيح ان هذا غير ممكن ؟ وانه يجب أن أموت غدا ، بل وربما اليوم ؟ .. هل صحيح أن الأمر هكذا ؟.. ياالهى ! ان هذه الفكرة الرهيبة لتدفعنى الى التفكير فى تحطيم رأسى على جدران زنزانتى .

والآن ، فلنعد ما تبقى لى :

مهلة مدتها ثلاثة أيام عقب النطق بالحكم لتقديم طلب الاستئناف الى محكمة النقض . وثمانية أيام من النسيان فى نيابة الاستئناف ترسل بعدها المستندات ـ كما يقولون ـ الى مكتب الوزير . وخمسة عشر يوما من الانتظار لدى الوزير الذى لا يحس بوجود هذه الاوراق ولا يعلم من أمرها شيئا ، ومع ذلك فالمفروض أنه يحيلها بعد فحصها الى محكمة النقض ، حيث يتم ترتيبها وترقيمها وتسجيلها ، لان المقصلة لديها عمل كثير ، ويجب الا يمر بها كل انسان الا فى دوره .. ثم خمسة عشر يوما للتأكد من أنه لم يحدث لك امتياز ما خارج حدود القوانين واللوائح .

واخيرا ، تنعقد المحكمة عادة فى يوم خميس ، فترفض عشرين طلب استئناف دفعة واحدة ، ثم تعيدها الى الوزير الذى يرسلها الى النائب العام ، فيحيلها هذا الى الجلاد . ويستغرق هذا كله ثلاثة أيام .

وفى صباح اليوم الرابع ، يقول وكيل النائب العام لنفسه وهو يلبس ربطة عنقه : « ومع ذلك فيجب أن تنتهى هذه المسألة ! » . وعندئذ ، فان كان نائب كاتب المحكمة ليس مرتبطا بموعد للغداء مع بعض الاصدقاء يمنعه من ذلك ، فان الامر بالاعدام تحدد له دائما دقيقة للتنفيذ ، ثم يحرر ويبيض ويرسل الى الجهة المختصة .. فيسمع منذ فجر اليوم التالى صوت اقامة اخشاب المقصلة فى ساحة الاعدام ، ويصيح المنادون العموميون

عند تقاطع الشوارع وفى الازقة فى صوت مرتفع مبحوح .

كل ذلك يتم فى ستة أسابيع . ان الفتاة الصغيرة كانت على حق ! ولكن هاهى ذى خمسة اسابيع على الاقل ، وربما ستة فلست أجرؤ على أن أعدها ، قد انقضت على فى هذا السجن ، سجن « بيستر » الحقير ، ويبدو لى انه منذ ثلاثة أيام مضت كان اليوم يوم خميس .

***

لقد فرغت الآن من كتابة وصيتى !

ولكن .. ما فائدة ذلك ؟ لقد حكم على بدفع تعويض لن يكون كل ما أمتلكه كافيا لسداده . حقا ان المقصلة باهظة الثمن !

اننى اترك ورائى اما ، وزوجة ، وطفلة ! .. طفلة صغيرة فى الثالثة من عمرها حلوة وردية اللون ضعيفة البنيان ، عيناها واسعتان سوداوان وشعرها طويل كستنائى اللون ، وكانت سن ابنتى سنتين وشهرا واحدا عندما رايتها لآخر مرة .

وهكذا ، فسوف يكون هناك بعد موتى ثلاث نساء : واحدة منهن بغير ابن ، والثانية بغير زوج ، والثالثة بلا اب .. ثلاث يتيمات من انواع مختلفة .. ثلاث ارامل باسم القانون !

انى أوافق على أن أعاقب عقابا عادلا ولكن .. هؤلاء البريئات ماذا جنين ؟ وما ذنبهن ؟ ان هذا لايهم ، فهم يلوثون شرف هؤلاء النسوة الثلاث ويدمرون حياتهن .. انها العدالة !

وليس مافى الامر ان أمى العجوز المسكين تقلقني، فسنها اربع وستون سنة وسوف تموت من أثر الصدمة ، ولو أنها عاشت من بعدى لبضعة أيام فياليتها تجد فى مدفأتها لآخر لحظة بعض الرماد الدافىء ، فهى لن تشكو ولن تقول شيئا .

وامر زوجتي كذلك لا يبعث فى نفسى القلق ، فهى معتلة الصحة ضعيفة النفس ، وسوف تموت هى الاخرى .. الا اذا أصابها مس من الجنون . انهم يقولون أن الجنون يطيل العمر ، ولكن عقلها لن يتألم عندئذ على الاقل ، ومن ثم فانها ستنام وتكون كأنها فى عداد الاموات .

أما ابنتى وفلذة كبدى ، طفلتى وصغيرتى « مــارى » المسكينة التى تضحك وتلعب وتغنى فى هــذه الساعة ولا تفكر فى شىء ، فانها هى التى تثير فى نفسى الالم !

فى الزنزانة

هذه هى زنزانتى :

ان مساحتها ثمانى أقدام مربعة ، ولها أربعة جدران سميكة من الحجر ، ترتكز بزاوية قائمة على أرضية من البلاط تعلو بمقدار درجة واحدة على مستوى الدهليز الخارجى . وهناك على يمين الداخل ، عند الباب ، نوع من التجويف يقلد فى سخرية صوان ملابس النساء الذى يوجد عادة داخل الجدران . أنهم يلقون فيه بحزمة من القش من المفروض أن يستريح السجين عليها وأن ينام وهو يرتدى سروالا من التيل ، وسترة من القماش الرخيص لا يتغيران صيفا أو شتاء .

وفوق رأسى كسماء ، يرى المرء « قبوة » سوداء ـ هكذا يسمونها ـ تتدلى منها خيوط العنكبوت كأنها خرق بالية . وفيما عدا هذا ، فلا نوافذ هناك ، حتى ولا كوة صغيرة ، فلن تجد اللهم الا بابا عتيدا يطغى فيه الحديد على الخشب .

كلا ، كلا .. اننى مخطىء ، ففى وسط هذا الباب الى أعلى ، هناك فتحة مساحتها تسع بوصات مربعة ، تتخللها

طولا وعرضا شبكة من حديد على شكل صليب ، يستطيع السجان أن يغلقها أثناء الليل .

وفى خارج الزنزانة ، دهليز طويل نسبيا يضاء ويغير هواؤه عن طريق نوافذ عالية ضيقة فى أعلى الجدار ، ومقسم الى أقسام بفواصل مبنية ، ويتصل بعضها ببعض بسلسلة من الابواب المتينة غير المرتفعة . ويستعمل كل قسم من أقسام هذا الدهليز ، على نحو ما ، كمـــدخل لزنزانة شبيهة بزنزانتى ، وفى هذه الزنزانات يضـعون المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة المؤبدة الذين يحكم عليهم مدير السجن بعقوبات تأديبية . إما الزنزانات الثـلاث الاولى فمخصصة للمحكوم عليهم بالآعدام لانها قريبة من مركز المراقبة ، ومن ثم فهى أكثر ملاءمة للسجان .

هذه الزنزانات هى كل ماتبقى من قصر « بيستر » القديم كما بناه فى القرن الخـــامس عشر الكاردينال « وينشستر » وهو نفس الكاردينال الذى قضى باحراق « جان دارك » .. اننى سمعت هذا من فضوليين كـانوا قد حضروا منذ أيام ليرونى فى زنزانتى ، وكانوا ينظـرون الى من بعيد كما ينظر الناس الى الوحوش الضارية فى حدائق الحيوان . وقد حصل السجان يومئذ على خمسة فرنكات .

لقد نسيت أن أقول أن هناك جنديا مكلفا بالحراسة على باب زنزانتى ليلا ونهارا ، وأن عينى لا تستطيعان ان ترتفعا الى الفتحة المربعة بباب الزنزانة دون ان تلتقيـــا بعينيه المفتوحتين الشاخصتين الى على الدوام .

وفيما عدا هذا : فهم يفترضون أن الهواء وضوء النهار ينفذان الى هذا الصندوق المصنوع من الحجر .

وبما أن ضوء النهار لم يظهر بعد ، فماذا أفعل بالليل ؟

لقد خطرت ببالى فكرة ، فنهضت واقفا وأدنيت مصباحى من الجدران الاربعة ، فوجدتها مغطاة بالكتابة والرسوم والاشكال الغريبة ، وبأسماء يختلط بعضها ببعض ويمحو بعضها بعضا . ويبدو أن كل محكوم عليه قد أراد أن يترك وراءه أثرا ، هنا على الاقل . أنها كتابات بالقلم، وبالطباشير ، وبالفحم ، وبها حروف سوداء وبيضاء ورمادية اللون محفورة فى الاغلب حفرا عميقا فى الحجر ورأيت هنا وهناك أحرفا بدأت معالمها تنطمس ، ويبدو أنها قد كتبت بالدم .

ولو أن نفسى كانت أكثر حرية مما هى فيه لاهتممت حقا بأمر هذا الكتاب الغريب المسطر أمام عينى صفحة صفحة على كل حجر من أحجار هذه الزنزانة ، ولكنى جعلت من هذه الشرائح من الافكار المبعثرة على الاحجار كتابا كاملا أعيد تأليفه ، وأن أجد مرة ثانية كل رجل وراء كل اسم ، وأن أعيد المعنى والحياة الى هذه الكلمات المحفورة المحطمة ، الى هذه العبارات المبعثرة المفككة ، الى هذه الالفاظ المبتورة التى بدت لى كأجساد بلا رءوس كالاشخاص الذين كتبوها .

ورأيت عند مستوى ارتفاع فراشى المصنوع من القش قلبين ملتهبين يخترقهما سهم ومكتوب فوقهما : « الحب مدى الحياة ! » يا للمسكين ! ماتت أمانيه فى ريعان الشباب !

والى جوار هذا قبعة مثلثة الزوايا ، من تحتهـا وجه مرسوم بطريقة رديئة ومعه هذه الكلمات : « يحيــــا الامبراطور .. « عام ١٨٢٤ » .

ورأيت قلوبا أخرى ملتهبة ومعها هذه العبارة الخاصة بحياة السجون : « اننى أحب وأعبد « ماتيو دنفان ـ جاك » .

وعلى الجدار المقابل لسريرى ، وقعت عيناى على هذا الاسم : « بابا فوان » ، وكان حرف الباء الاول كبيـــرا ومزركشا بنقوش عربية ومرسوما بعناية ، ومن تحـت هذا مقاطع من اغنية بذيئة . ثم على « قبعة الحرية » المحفورة فى الحجر بشكل عميق بعض الشىء ، وقد كتب من فوقها هذا الكلام : « الى الجمهورية ــ بوريس » .. انه كان أحد ضباط الصف الاربعة بمدينة « لاروشيل »! ياله من شاب مسكين ! ويا لكآبة ضروراتهم السياسية المزعومة ! فبسبب فكرة أو حلم أو مجرد خيال ، نرى هذه الحقيقة البشعة : المقصلة ! .. وانا الذى كنت أشكو .. أنا التعس الذى ارتكبت جريمة بمعنى الكلمة وارقت الدماء !

اننى لن اذهب فى بحثى الى ابعد من هذا ، فقد رأيت من فورى صورة رهيبة مروعة مرسومة باللون الابيض فى ركن الجدار : انها صورة هذه المقصلة التى ربمـا كانت تقام لى فى هذه اللحظة ! وكاد المصباح يسقط من يدى !

***

واندفعت عائدا لاجلس على القش وراسى بين ركبتى ،

ثم انقشع فزعي الصبياني وأخذتني من جديد الرغبة في الاستطلاع ، ومتابعة قراءة ماهو مكتوب على جدران الزنزانة .

انتزعت من جانب اسم « بابا فوان » نسيج عنكبوت ضخم مثقلا تماما بالغبار ، ومعلقا في زاوية الجدار ، فرايت تحته اربعة أسماء أو خمسة من الممكن أن تقرأ بسهولة من بين أسماء أخرى لم يبق منها سوى بقع على الجدار . أما الاسماء الواضحة فهي : « دوتان » عام ١٨١٥ — « بولان » عام ١٨١٨ — « جان مارتان » ١٨٢١ — « كاستانج » عام ١٨٢٣ .

وما كدت أقرأ هذه الاسماء حتى انتابتني ذكريات مظلمة أما « دوتان » هو الذى قطع اخاه اربا اربا ، وذهب ليلا الى باريس ليلقي براسه في نافورة وبجذعه في المجاري ! و « بولان » هو الذى قتل زوجته ، و « جان مارتان » هو الذى اطلق رصاص مسدسه على والده الشيخ وهو يفتح نافذة . أما « كاستانج » فهو ذلك الطبيب الذى قضى على صديقه وهو يعالجه في مرضه الاخير ، الذى كان الطبيب نفسه سببا فيه ، وذلك بأن كان يعطيه السم على انه دواء . والى جانب هؤلاء « بابافوان » المجنون الرهيب الذى كان يقتل الاطفال بطعنة من سكين في الرأس !!

قلت في نفسي : هاهم أولاء من أقاموا من قبلي ضيوفا في هذه الزنزانة ! واحسست برجفة من الحمى تسري في

كليتى ! هنا ، على نفس هذه « البلاطة » التى أجلس عليها جالت فى أذهان رجال الجريمة والدم هؤلاء ، أفكارهم الاخيرة .. لقد دارت خطواتهم الاخيرة حول هذا الجدار وفى هذا المربع الضيق ، كخطوات حيوان كاسر . لقد تتابع بعضهم فى اثر بعض على فترات متقاربة فى هذه الزنزانة حتى ليبدو لى أنها لم تخل أبدا من النزلاء ! لقد تركوا هذا المكان دافئا .. تركوه لى أنا ، وسوف أذهب بدورى لالحق بهم فى مقبرة « كلامار » حيث ينمو العشب بغزارة أيما غزارة !

لست اتنبأ بالغيب ، ولا أعتقد فى الخرافات ، ومن المحتمل أن هذه الافكار كانت تثير فى نفسى مزيدا من الحمى ، ولكن بدا لى فجأة وانا أحلم على هذه الصورة ، أن تلك الاسماء المشئومة كانت مكتوبة بالنار على الجدار الاسود ، ودوى فى أذنى رنين قوى أخذ يزداد عنفا وسرعة ، وامتلات عيناى بوهج احمر ! ثم بدا لى أن الزنزانة كانت مملوءة بالرجال ، برجال أشكالهم غريبة ، كانوا يحملون رءوسهم بأيديهم اليسرى وهم يمسكون بها من الفم ، لانها كانت رءوسا لا شعر فيها .. وكانوا جميعا يلوحون الى بقبضات أيديهم مهددين ماعدا قاتل أبيه !

وأطبقت عينى وقد تملكنى الهلع ، فرأيت عندئذ كل شىء فى وضوح أكثر ، وسواء أكان ما رايته حلما أم رؤيا ام حقيقة ، فقد كنت خليقا بأن اجن .. اولا انى أحسست بشعور مفاجىء أيقظنى من هذا الكابوس فى

الوقت المناسب ، وكدت اقع على ظهرى عندما شعرت ببطن بارد ، وبأرجل صغيرة مكسوة بالزغب تزحف فوق قدمى العاريتين . كان هذا هو العنكبوت الذى كان فى طريقه الى الهرب بعد أن أزعجته .

ولقد ازال هذا العنكبوت الرؤيا من أمام ناظرى . ويالها من اشباح مرعبة ! كلا ، انها كانت دخانا ينبعث من مخى الخاوى المحموم ! كانت كابوسا على طريقة « ماكبث ! » فالموتى ميتون ، وخاصة هؤلاء . لقد اغلقت عليهم القبور جيدا بالاقفال ، وليس القبر سجنا يهرب منه الانسان . فكيف حدث اذن أنى خفت على هذا النحو ؟

ان باب القبر لا يفتح من الداخل قط .

مشــهد رهــيب

رايت فى هذه الايام الماضية شيئا بشعا !

كنا فى مطلع الفجر ، وكان السجن يضج بالاصوات ، وكان يسمع صوت اغلاق الابواب الثقيلة وفتحها ، وصرير المزاليج والاقفال الحديدية ، وصليل رزم المفاتيح التى يحتك بعضها ببعض فى أحزمة السجانين ، واهتزاز درجات السلم من أعلى الى أسفل تحت وقع خطوات مندفعة ، وأصوات ينادى بعضها بعضا ، ويرد بعضها على بعض من طرفى الدهاليز الطويلة ! وكان جيرانى فى الزنزانه ، وهم المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة المؤبدة ، اكثر مرحا من المألوف . وكان يبدو على سجن « بيستر » بأسره أنه يضحك ويغنى ، وأنه يلهو ويرقص .

وبقيت وحدى صامتا وسط كل هذه الضوضاء ، ساكنا لا أبدى حراكا وسط هذه الحركة الدائبة . كنت أصغى فحسب ، أصغى فى يقظة وانتباه وقد تملكتنى الدهشة .

ومر أحد السجانين فخاطرت بندائه ، وسألته عما اذا كان هناك عيد فى السجن ، فأجابنى الرجل قائلا : « انه عيد اذا شئت ! فاليوم موعد تقييد المحكوم عليهم بالاشغال

الشاقة بالحديد ، أولئك الذين يجب أن يرحلوا غـدا الى سجن « طولون » أتريد أن تشاهد ذلك ؟ انه سوف يسليك » .

وكان هذا المنظر فى الواقع ــ مهما بلغ من بشاعته ــ فرصة طيبة لانسان سجين بمفرده فى زنزانة ، فقبلت هذه التسلية .

واتخذ السجان الاحتياطات المعتادة كى يطمئن مـن ناحيتى ، ثم اصطحبنى الى زنزانة صغيرة خالية ليس بها أثاث على الاطلاق ، ولها نافذة مسورة بقضبان من حديد ، ولكنها نافذة بمعنى الكلمة ، على قدر من الارتفاع يسمح للمرء بأن يتكىء على حافتها ، وأن يرى السماء من خلالها بالفعل .

وقال لى السجان : « حسنا .. من هنا سوف ترى وتسمع ، وسوف تكون وحدك فى مقصورتك هذه وكأنك ملك ! » .

ثم خرج الرجل بعد أن أغلق على باب الزنزانة بالمفاتيح والاقفال والمزاليج .

وكانت تلك النافذة تطل على فناء مربع الشكل ، فسيح الى حد معقول ، يحيط به من الجهات الاربع بناء كبير من الحجر مؤلف من ستة طوابق كأنه جدار ضخم . وليس ثمة ماهو أكثر زراية وعريا وأشد ايذاء للعين من هـذه الواجهة الرباعية ذات النوافذ العديدة المسورة بالحديد ، التى التصقت بها ــ من أسفل البناء الى أعلاه ــ مجموعة كبيرة من الوجوه الشاحبة الضامرة ، قد تكدس بعضها فوق بعض كأنها أحجار فى جدار ، يحيط بها جميعا ــ

ان صح هذا التعبير ـ اطار من قضبان النوافذ الحديدية كان هؤلاء هم السجناء ، قد أخذوا يشاهدون هـــذا الحفل ، فى انتظار أدوارهم حين تحين ليصبحوا عم المثلين . ان المرء ليخيل اليه أنهم أرواح معذبة من وراء نوافذ من حديد تطل على جهنم .

كانوا ينظرون جميعا فى صمت الى الفناء الذى كان لا يزال خاليا الى تلك اللحظة . انهم كانوا ينتظرون . وهنا وهناك ، كانت بعض الاعين الحية الثاقبة تلمع كانها نقط من النار بين تلك الوجوه الحزينة المنطفئة .

ان « مربع السجون » ، الذى يحيط بذلك الفناء ليس مقفلا من جميع نواحيه ، فأحد أضلاعه الاربعة « الضلع الذى يطل على جهة الشرق » مقطوع عند وسطه تقريبا ولا يتصل بالضلع الذى يجاوره الا بسور من حديد ، يطل على فناء ثان أصغر مساحة من الفناء الاول ، ومحاط مثله بالجدران والابراج الصغيرة السوداء .

ومن حول الفناء الرئيسى ، توجد مقاعد من الحجر ظهورها الى الجدار الضخم ، ويقوم فى وسطه عامود من الحديد مثنى من أعلى ليعلق به المصباح .

وما كادت الساعة تدق معلنة الثانية عشرة ظهرا ، حتى فتح على حين فجأة باب كبير مرتفع يكمن وراء تجويف فى البناء ، وظهرت عربة « كارو » يحرسها نفر من الجنود بدت عليهم القذارة والوجل ، يرتدون زيا أزرق ، وعلى أكتافهم شارات حمراء ، وسيور صفراء ، من التى تعلق فيها البنادق . ودخلت هذه العربة الفناء فى تثاقل محدثة

صوتا حديديا . كانت تلك هى عربة السجانين قد جاءوا ومعهم أغلال من حديد .

وفى تلك اللحظة عينها ، وكما لو كان الصوت الصادر من العربة قد أيقظ كل أصوات السجن ، ضج المتفرجون من النوافذ بصيحات المرح والاغانى ، وبالتهديد والسب والشتائم المختلطة بقهقهة عالية ، وضحكات سماعها يؤلم الاذان ، وهم الذين كانوا الى تلك اللحظة صامتين لا يتحركون ، كانت وجوههم تبدو كأنها وجوه الشياطين وقد بدت مكفهرة مكشرة عن انيابها ، وبرزت قبضات أيديهم من خلال قضبان النوافذ ، وارتفعت كل الاصوات ولمعت كل الاعين ، فروعتنى رؤية كل ذلك الشرر وهو يتطاير من خلال هذا الرماد .

ومع ذلك ، فقد شرع عمال السجن ، الذين كنت أميز من بينهم عددا من الفضوليين ، كانوا قد قدموا من باريس نظرا لما كان باديا عليهم من الرعب ونظافة الهندام ، وشرع عمال السجن هؤلاء فى تأدية عملهم فى هدوء ، فصعد احدهم فوق العربة والقى الى رفاقه بالاغلال الحديدية، واطواق السفر ، ورزم السراويل المصنوعة من التيل الرخيص . ثم قسم العمال العمل فيما بينهم . فذهب فريق منهم الى ركن من أركان الفناء ليبسطوا فيه السلاسل الطويلة التى كانوا يسمونها فى لغتهم «الدوبارة» اما الآخرون فقد بسطوا الاقمشة والقمصان والسراويل على « البلاط » ، بينما كان أكثرهم فراسة يفحصون الاطواق الحديدية المخصصة لاقدام السجناء ، تحت

مراقبة قائدهم وهو شيخ بدين ، ثم يمتحنون صلابتها بحكها فى البلاط حتى يتطاير منها الشرر .

وكان هذا كله يجرى بينما كان السجناء يصفقون فى سخرية واستهزاء ، ولم يكن يطغى على أصواتهم الا ضحكات صاخبة صادرة من المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ، الذين كان ذلك يعد من أجلهم ، وهم يقفون على مراى منا عند تقاطع السجن العتيق الذى يطل على الفناء الصغير .

وما أن تمت هذه الاستعدادات حتى جاء رجل فى ثياب موشاة بالفضة كانوا يدعونه « السيد المفتش » ، واعطى امرا الى مامور السجن . وما هى الا لحظة حتى لفظ بابان منخفضان أو ثلاثة عددا ضخما من الرجال دفعة واحدة ، وامتلأ الفناء بكتل كالسحاب من السجناء البشعين المهلهلين وهم يصيحون ويزأرون . كان هؤلاء هم المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة !

وتضاعف الفرح فى النوافذ لدى دخول هؤلاء ، وحيا السجناء بعضهم — وهم الاسماء الكبيرة فى الليمان — بالتصفيق والتهليل ، فكان هؤلاء يتقبلون ذلك منهم فى نوع من التواضع الممزوج بالفخر ، وكان أكثرهم يلبسون فوق رءوسهم قبعات غريبة الشكل كانوا قد صنعوها بأيديهم من قش الزنزانة ، كى تلفت الانظار الى رءوسهم فى المدن التى سوف يمرون بها . وكان التصفيق لهؤلاء بالذات أكثر شدة وحماسا ، بل ان احدهم بصفة خاصة — وهو شاب فى السابعة عشرة كان وجهه شبيها بوجه فتاة — قد اثار مظاهر الحماسة والانفعال وهو خارج من

زنزانته حيث احتجز منذ ثمانية أيام ، وكان قد صنع بنفسه من قش زنزانته رداء كان يغطيه من رأسه الى قدميه ، فدلف الى الفناء وهو يلف ويدور حول نفسه فى خفة لا تحاكيها الا خفة ثعبان ، فثارت بسببه عاصفة مجنونة من التصفيق ، ومن صيحات السرور . وكان المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة يردون على ذلك من ابراجهم ، فكان هذا التجاوب في المشاعر وتبادل المرح بين المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة الراحلين لتنفيذ العقوبة وبين زملائهم الذين ينتظرون دورهم شيئا مرعبا حقا . ومهما كان المجتمع هنا يمثله السجانون والفضوليون الذين استولى عليهم الذعر ، فان الجريمة كانت تتحداه فى تلك اللحظة وجها لوجه ، وكانت تجعل من هذه العقوبة المفزعة عيدا عائليا .

وكلما وصل سجناء آخرون ، كانوا يدفعونهم بين صفين كثيفين من الحراس الى الفناء الصغير المحوط بالاسوار الحديدية حيث كان ينتظرهم الاطباء . وهناك ، بذل كل واحد منهم جهدا اخيرا ليتجنب السفر متعللا بعذر من الاعذار الصحية : فهو اما مريض بعينيه ، واما مقطوع اليد ، واما أنه يعرج بساقه ، لكن الاطباء كانوا يجدونهم فى الاغلب الاعم صالحين لليمان ، فكان كل منهم يرضخ عندئذ فى غير مبالاة ، متناسيا فى دقائق قليلة عجزه المزعوم الذى كان مصابا به طول حياته .

ثم فتح باب الفناء الصغير مرة اخرى واخذ أحد الحراس ينادى بأسماء السجناء مرتبة حسب الحروف الابجدية ، فخرج المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة عندئذ

واحدا واحدا ، وذهب كل منهم لينتظم واقفا فى الصف فى ركن الفناء الكبير الى جوار زميل له ، جمعته به صدفة الحرف الذى يبدأ اسمه به . وهكذا كان كل واحد منهم يرى نفسه امام نفسه ، وكان كل واحد منهم يحمل قيده بنفسه جنبا الى جنب مع شخص مجهول ، واذا شاءت المصادفة أن يجد أحدهم صديقا له فيهم ، فان القيد الحديدى كان يحول بينهما ويفصله عنه فصلا لا سبيل الى الفكاك منه ، فكان ذلك أبلغ الشقاء وأمره !

وبعد أن خرج نحو ثلاثين سجينا أقفل الباب كما كان ، ثم صفهم احد الجنود صفا بعصا فى يده ، والقى أمام كل واحد منهم بقميص وسترة وسروال من قماش رخيص ، ثم اشار بيده اشارة خاصة فشرعوا جميعا فى خلع ملابسهم ، غير أن حادثا غير منتظر وقع عندئذ ، وكأنه كان قد تعمد اختيار تلك اللحظة بالذات ليحيل هذا الاذلال الى عذاب .

كان الطقس الى تلك اللحظة جميلا نوعا ما ، ولئن كان نسيم شهر أكتوبر يشيع البرودة فى الجو ، فانه كان يشق من آن لاخر فى غيوم السماء الرمادية اللون ثغرة كان يسقط منها شعاع من الشمس . ولكن ماكاد المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ينزعون من على اجسادهم أسمال السجن البالية ويتقدمون عراة ليفحصهم الحراس المتشككون على مرأى من اعين الفضوليين الغرباء الذين كانوا يدورون من حولهم ليفحصوا أكتافهم ، حتى اظلمت السماء فجأة وهطل وابل من أمطار الخريف التى تشبه

السيل ، فغمر الفناء المربع بالماء البارد واغرق رءوس السجناء الحاسرة وأوصالهم العارية وملابسهم التعسة الملقاة على الارض .

وفى طرفة عين ، كان مدخل الفناء قد خلا تماما من كل شخص لم يكن سجانا أو سجينا ، وهرع فضوليو باريس ليحتموا تحت مداخل الابواب .

ومع ذلك ، فقد استمر المطر ينهمر مدرارا ، ولم نكن نرى فى الفناء سوى المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة وقد وقفوا عراة يتصبب الماء من فوق جلودهم على أرض الفناء الغارقة فى الماء .. ان صمتا حزينا قد أعقب تحديهم الصاخب فوقفوا يرتجفون ، واخذت أسنانهم تصطك وسيقانهم الناحلة وركباتهم ذات العقد ترتعد فتصطدم الواحدة بالاخرى . وكان منظرهم يستوجب الشفقة حقا ، وهم يسترون أجزاء أجسادهم العارية الزرقاء بهذه القمصان المبتلة وتلك السترة والسراويل التى يقطر منها الماء . لقد كان العرى خيرا لهم !

ان واحدا منهم ، واحدا فقط ، وهو شيخ مسن ، كان قد احتفظ بشيء من المرح ، فصاح قائلا وهو يجفف جسمه بقميصه المبتل : « أن هذا لم يكن ضمن البرنامج!» ثم اغرق فى الضحك ، وهو يلوح بقبضة يده نحو السماء .

وبعد أن لبس السجناء ثياب السفر ، اقتادهم حراسهم فى مجموعات تضم عشرين أو ثلاثين شخصا الى ركن مظلل من الفناء حيث كانت القيود الممدودة على

الارض فى انتظارهم . وكانت تلك القيود عبارة عن سلاسل طويلة غليظة تقطعها أفقيا وعلى بعد قدمين بانتظام سلاسل أخرى قصيرة قد ربط فى طرفيها طوق من حديد مربع الشكل يفتح عن طريق « مفصلة » فى أحد جوانبه ، ويقفل من الجانب المقابل « ببرشمته » بالحديد ويظل هذا الطوق الحديدى حول رقبة السجين طول مدة الرحلة وعندما نشرت كل هذه السلاسل على الارض بدت لى كانها هيكل عظمى لسمكة ضخمة .

واجلس السجناء فى الوحل على الارض الفارقة فى الماء وبعد أن قيست الاطواق على أعناقهم ، جاء حدادان من السجانين مزودان بسندانين متنقلين فبرشموا لهم تلك الاطواق « على البارد » بطرقها طرقا شديدا بمطرقة من حديد . فكانت هذه لحظة رهيبة اصفر لها وجه أكثر السجناء شجاعة ! لقد كانت كل ضربة من المطرقة على السندان المسنود الى كتف السجين من ناحية ظهره تجعل ذقن المسكين تقفز الى الامام ، وكانت أدنى حركة يمكن أن يأتى بها السجين من الامام الى الخلف كفيلة بأن تطيح بجمجمته كأنها قشرة « عين جمل ! »

وما أن تمت هذه العملية حتى وجم السجناء واظلمت وجوههم ، ولم يعد يسمع الا صليل السلاسل وصوت مكتوم كان يتردد بين حين وآخر ، صوت عصى السجانين على أجسام من يبدون تمنعا أو مقاومة .. لقد كان بعض هؤلاء السجناء يبكون ، وكان الشيوخ منهم يرتعدون وهم يعضون على نواجذهم ، ووقفت أنا فى نافذة الزنزانة

اطل على الفناء وانظر فى رعب الى كل تلك الصور المحزنة فى اطارها الحديدى .

وهكذا ، فان زيارة السجانين تلت زيارة الطبيب ، واعقب زيارة السجانين تركيب الاطواق الحديدية حول رقاب السجناء المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة .. لقد كان مشهدا مؤلفا من ثلاثة فصول !

وظهر شعاع الشمس من جديد فبدا كأنه قد اشعل كل هذه العقول ، اذ نهض السجناء معا دفعة واحدة ، كما لو كانوا قد تحركوا بفعل الحمى ، وتشابكت أيدى سجناء السلاسل الخمس الطويلة وانتظموا فجأة فى حلقة ضخمة حول عامود المصباح الذى يتوسط الفناء ، وأخذوا يدورون من حوله على نحو يتعب البصر وهم ينشدون احدى أغانى الليمان فى لغة عامية دارجة ، وفى نغمة تارة شاكية باكية ، وأخرى صاخبة مرحة . وكنت أسمع بين حين وآخر صيحات جافة وضحكات ممزقة لاهثة تمتزج بكلمات هذه الاغنية الغريبة ، ثم تلا ذلك تصفيق حاد مجنون ، بينما كانت القيود الحديدية تصلصل ويصطك بعضها ببعض فتحدث نغما كان بمثابة الموسيقى لتلك الاغنية ، وهى موسيقى كانت أشد خشونة من ضوضائهم ! ولو بحثت فى مخيلتى عن صورة للعفاريت فلن أستطيع أن أتخيلها أحسن ولا أسوأ من هذه الصورة !

ثم احضر الى الفناء طست كبير ، وقطع السجانون على السجناء رقصهم بضربات من عصيهم ، ثم ساقوهم الى هذا الطست حيث كان المرء يرى شيئا طافيا كالعشب —

لست أدرى ماهو — فى سائل ساخن كان يتصاعد منه البخار لست أدرى ماهو كذلك ، فأخذوا يأكلون .

وبعد أن فرغ السجناء من أكلهم ألقوا بما تبقى من طعامهم هذا ومن خبزهم الاسود على بلاط الفناء ثم عادوا الى الرقص والغناء من جديد ، ويبدو انهم يتركون لهم شيئا من هذه الحرية يوم يكبلون فى الاصفاد وكذلك فى الليلة التى تليها .

ومكثت ارقب هذا المشهد الغريب فى يقظة كبيرة ، واستطلاع منهوم ، وانفعال عميق ، حتى أنى نسيت نفسى تماما ! ان شعورا جارفا من الشفقة كان يجتاحنى فيمزق أحشائى ، وكانت ضحكاتهم تملأ عينى بالدموع .

وفجاة ، وخلال هذا الحلم العميق الذى كنت مستغرقا فيه رأيت الحلقة الضخمة تكف عن الصياح والدوران ، وساد صمت عميق ثم فجاة اتجهت أنظارهم الى النافذة التى كنت أشغلها ، وصاحوا جميعا ، وهم يشيرون الى بأصابعهم قائلين : « المحكوم عليه بالاعدام !.. المحكوم عليه بالاعدام ! » .. وقد غمرهم فى تلك اللحظة مرح مضاعف ..

وتصلبت فى مكانى متحجرا ! فقد كنت أجهل من أين عرفونى وكيف تعرفوا على !

وصاحوا بى قائلين ، وهم يطلقون ضحكات ساخرة بشعة : « عمت صباحا ! .. طاب مساؤك ! » .. ونظر الى واحد من بينهم ، وهو شاب يافع كان أصغر المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة المؤبدةسننا ، وكان وجهه خشنا

لامعا جامد الملامح ، نظر الى نظرة تفيض بالحسد ، وهو يقول : « انه لسعيد الحظ ! فسوف يمحى من العالم ! وداعا أيها الزميل ! »

لست بمستطيع أن أعبر عما كان يدور فى نفسى .. اننى كنت فى الواقع زميلا لهم ، فساحة الاعدام هى شقيقة لليمان « طولون » ، بل انى كنت فى درك اسفل منهم ! .. انهم كانوا يشرفوننى ..

واجتاحتنى رجفة عاتية .. نعم ، انى زميل لهم ومن الممكن ان اصير — انا نفسى — بعد ايام مشهدا يملأ عليهم ابصارهم !

وكنت قد بقيت فى النافذة بلا حراك وقد شلت أوصالى وتملكنى الذهول . ولكننى حينما رايت سجناء السلاسل الخمس الكبرى يتقدمون الى الامام ثم يندفعون نحوى وهم يوجهون الى كلمات ودية جهنمية ، وحينما سمعت ضجيج قيودهم الفظيع يختلط بصيحاتهم المجلجلة ، وبوقع خطواتهم تحت نافذتى عند أسفل الجدار ، خيل الى أن هذه الشرذمة من الشياطين كانت تتسلق البناء الى زنزانتى التعسة ، وأطلقت صيحة مروعة ثم اندفعت نحو الباب والقيت نفسى عليه بكل قواى كى احطمه ، لكننى لم اجد سبيلا الى الفرار ، فقد كان الباب مقفلا من الخارج بالمزلاج .. وعدت احاول اقتحام الباب ، وانا انادى واصرخ فى جنون ، فبدا لى وقتئذ انى كنت أسمع اصوات السجناء المخيفة تقترب منى اكثر فاكثر ، وظننت انى أري رءوسهم المنكرة تبدو بسرعة على حافة نافذتى ، فصحت صيحة فزع اخرى مدوية ثم سقطت مغشيا على .

اللحـــن الحزيـــن

وعندما أفقت من غشيتى كان الليل قد أقبل ، ووجدت نفسى راقدا فوق « برش » ، وكان هناك مصباح ترتجف ذبالته قرب السقف مكننى من أن أرى « أبراشا » أخرى مرصوصة الى جوار « برشى » عن يمين ، وعن شمال ، فأدركت أنهم نقلونى الى مستشفى السجن .

وظللت مستيقظا لحظات ، ولكن بلا تفكير وبلا ذاكرة وقد أحسست بسعادة غامرة لانى نائم على سرير . وليس ثمة شك فى أن سرير المستشفى هذا كان خليقا فى أى ظرف آخر بأن يجعلنى أفر منه شفقة واشمئزازا ، غير أنى كنت قد أصبحت شخصا آخر .. كانت ملاءة هـذا السـرير رمادية اللون خشنة الملمس ، وكان الغطاء ممزقا ، وكنت اشعر بقش الزنزانة من خلال تلك « المرتبة » .. ولكن هذا لم يكن يهم ! .. فقد كان فى وسعى أن ابسط أطرافى كما يروق لى فوق هذه الملاءة الرخيصة وتحت هـــذا الغطاء مهما بلغ من الرقة ، وكنت احس رويدا رويدا بزوال هذا البرد المروع الذى كان ينفذ حتى نخـــاع

العظام ، والذى كنت قد ألفته فى الزنزانة ، فاستسلمت مرة اخرى للنوم .

واستيقظت من نومى على صوت جلبة كبيرة ، وكان الوقت فجرا . كان الصوت يأتينى من الخارج ، وكان سريرى بجوار النافذة ، فنهضت وجلست فى الفراش لاستجلى مصدر هذا الصوت ..

كانت النافذة تطل على الفناء الكبير فى سجن «بيستر» ، وكان هذا الفناء يعج بالناس حيث كان صفان من جنود السجن القدامى الاشداء يجدان مشقة كبيرة فى الاحتفاظ بممر مفتوح عبر الفناء بين هذه الكتل من الجماهير ، وبين هذين الصفين من الجنود كانت خمس عربات « كارو » محملة بالرجال تتقدم فى بطء وهى تتعثر عند كل «بلاطة» .. كان هؤلاء الرجال هم السجناء المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة الذين تقرر رحيلهم .

كانت هذه العربات مكشوفة ، وكانت كل واحدة منها محملة بمجموعة من السجناء تربطهم احدى السلاسل الطويلة الخمس ، وقد جلسوا على جانبيها واتكأ بعضهم على بعض ، تفصل بينهم السلسلة المشتركة التى كانت تمتد بطول العربة ، والتى كان يقف عند آخرها على قيد خطوة من سلمها جندى يشهر بندقية معدة للاطلاق . وكانت صلصلة الاصفاد الحديدية تسمع عند كل هزة من هزات العربة ، كما كانت رءوس السجناء ترى وهى تقفز وسيقانهم المعلقة تتأرجح هنا وهناك .

وكان ثمة رذاذ نافذ يثلج الهواء ويجعل سراويل

السجناء الرمادية المصنوعة من التيل والتى كـــانت قد اسودت ، يجعلها تلتصق بركباتهم ، وكان ماء المطر يتصبب من لحاهم الطويلة ومن شعرهم القصير ويغمر وجوههم التى صارت بنفسجية اللون وكنت أراهم وهم يرتجفون وقد أخذت أسنانهم تصطك من البرد والغضب .

وكان هؤلاء السجناء من جهة أخرى عاجزين عن الحركة اذ أن المرء عندما يربط بسلسلة كهذه فانه لا يصبح الا جزءا من تلك الكتلة القبيحة التى يسمونها « الكردون » والتى تتحرك كأنها رجل واحد .. ان الذكاء لابد عندئذ أن ينمحى ، فطوق اليمان الملفوف حول العنق يخنق العقل ويحكم عليه بالموت ، أما الحيوان نفسه (١) فيجب الا تكون له حاجات أو شهية للطعام الا فى ســـاعات محددة .

وهكذا ، فان السجناء كانوا لايستطيعون حركة وقد أصبحوا شبه عراة ، ورءوسهم حاسرة وأرجلهم معلقة فى الهواء . كانوا يبدءون ، على هذا النحو ، سفرهم الذى يستغرق خمسة وعشرين يوما ، وهم محمولون على نفس العربات ويرتدون نفس الثياب ، تحت وهج الشـــمس المحرقة وتحت أمطار نوفمبر الباردة ، حتى ليبدو أن الناس كانوا يريدون أن تشاركهم السماء مناصفة القيـــام بعملهم كجلادين !

وكان قد نشب بين هذا الجمهور وبين العربات حوار رهيب : سب من ناحية ، وتحد من الناحية الاخرى ،

---

(١) يعنى الناحية الحيوانية فى السجين أى البدن ومطالبه .

وشكاوى وشتائم من الجانبين .. ولكن ماهى الا اشارة صدرت من القائد (١) حتى رأيت وابلا من ضربات العصى التى كان يحملها الجنود ينهال على العربات الخمس فيفرق اكتاف السجناء أو رءوسهم بلا تمييز ، فعاد كل شىء الى الهدوء ، ولكنه كان ذلك الهدوء الظاهرى الذى يسمونه نظاما ، اذ كانت أعين هؤلاء التعساء تفيض بالانتقام ، وكانت أيديهم تتقلص على ركبهم فى عنف ظاهر .

واختفت العربات « الكارو » الخمس ، التى كان يحرسها فرسان البوليس وجنود السجون المشاة . واحدة بعد أخرى تحت ذلك الباب المرتفع ذى « القبوة » ، باب سجن « بيستر » ، وتبعتها عربة سادسة تكدست عليها المواقد والاوانى النحاسية والسلاسل الاحتياطية (٢) .. وكان نفر من السجانين قد تأخروا قليلا فى القصف (٣) فخرجوا مسرعين ليلحقوا بالعربات .

ثم انفض الجمهور وتلاشى هذا المنظر كأنه رؤيا أو خيال عابر ، وأخذت الجلبة التى كانت تصدر عن تلك العربات الثقيلة تتضاءل شيئا فشيئا ويضعف معها وقع سنابك الخيل على طريق « فونتينبلو » المرصوف ، وقرقعة السياط ، وصليل السلاسل ، وصيحات الجماهير الذين كانوا يتمنون للسجناء فى سفرهم كل المصائب والنكبات .

ومع ذلك ، فقد كان هذا بالنسبة اليهم مجرد بداية فحسب !

(١) الكابتن قائد حرس السجن .
(٢) سلاسل واطواق حديدية اضافية وقطع غيار للطوارىء .
(٣) (كانتين) السجن .

فماذا كان يقول لى المحامى اذن ؟ .. الاشغال الشاقة المؤبدة ! .. آه ! ان الموت خير عندى ألف مرة ! انى أفضل المشنقة على الليمان ، والفناء على جهنم (١) ، واوثر أن أسلم رقبتى لسكين الدكتور « جيوتان » على أن أسلمها لطوق السجان !

آه ! الاشغال الشاقة المؤبدة ؟! .. رحماك أيتها السماء العادلة !

***

لم اكن مريضا لسوء الحظ ، واضطررت فى اليوم التالى الى الخروج من مستشفى السجن لتتلقفنى الزنزانة مرة ثانية .

اننى لست مريضا ! هذا حق ، فأنا شاب قوى ، أستمتع بصحة جيدة ويجرى الدم فى عروقى فى حرية ، وكل أعضاء جسمى تطيع سائر نزواتى .. أنا قوى الجسم والروح ، وتكوينى يمكننى من أن أعيش طويلا .. نعم ، ان هذا كله صحيح .. ومع ذلك ، فانى مصاب بمرض آخر ، بمرض مميت من صنع يد الانسان .

فمنذ أن خرجت من مستشفى السجن تملكتنى فكرة مؤلمة ، فكرة سوف تورثنى الجنون ! فقد خطر ببالى أنى ربما استطعت الهرب لو أنهم تركونى فى هذا المستشفى ، فهؤلاء الاطباء والراهبات كان يبدو أنهم يعنون بأمرى .. اننى سوف أموت هكذا وأنا بعد شاب صغير السن ... سوف أموت مثل هذه الميتة الشنعاء !

(١) يعنى المؤلف عذاب الليمان والاشغال الشاقة المؤبدة .

لقد بدا لى أنهم كانوا يرثون لحالى لكثرة ما كـــانوا يحومون حولى ويتزاحمون الى جوار سريرى .. آه ! صمتا أيها التعس ! .. فهو مجرد حب استطلاع فحسب .. وفوق هذا ، فهؤلاء الاشخاص وان حاولوا انقـــاذى حقا من الحمى ، فليس فى استطاعتهم أن ينقذونى من حكم الاعدام ! .. ومع ذلك ، أفليس الامر يسيرا عليهم للغاية ؟ مجرد باب يترك مفتوحا ! ماذا يضيرهم لو أنهم فعلوا ذلك ؟

ولكن واحسرتاه ! لم تعد أمامى فرصة الآن ... ان طلب الاستئناف الذى تقدمت به سوف يرفض لان كل شيء قد سار طبقا لنص القانون ، فقد شهد الشـــهود شهادة كاملة ، وترافع المترافعون مرافعة جيدة ، وحكم القضاة حكما صحيحا ! اننى لا أعول على الاستئناف ، اللهم الا .. كلا ، كلا .. ان هذا ضرب من الجنون ! ولم يعد ثمة أمل ! فطلب استئناف الحكم ليس الا حبـــلا يمسك بتلابيبك وأنت معلق فوق الهوة فتســـمعه وهـــو يتآكل قليلا قليلا مع كل لحظة حتى ينقطع تماما .. انه كسكين المقصلة عندما تهوى على عنق المرء فى ســـتة أسابيع !

آه لو صـــدر عفو عنى ! .. عفو ؟! .. من ذا الذى سوف يصدره ؟ ولماذا ؟ وكيف ؟ .. من المحال أن يصدر العفو عنى ، كل ذلك عبرة للناس ، وضرب مثل .. كما يقولون ..

لم تعد هناك أمامى سوى ثلاث خطوات أخطـوها ، ثلاث فحسب : سجن « بيستر » .. ثم ســـــجن

« الكونسيير جوري » .. واخيرا ، ساحة الاعدام !

***

وكنت قد جلست في الشمس بجوار النافـذة خـلال الساعات القليلة التي قضيتها في المستشفى ... ان الشمس قد عادت الى الظهور ، أو على الاقل ، كنـت أتلقى من أشعتها كل ماكانت تسمح لي به منها قضـبان النافذة الحديدية .

جلست هناك وقد وضعت راسي الثقيل المحموم بين يدي اللتين كانتا لا تقويان على حمله ، وأسندت مرفقي الى ركبتي وقدمي الى قضبان مقعدي ، لان الانهـاك كان قد بلغ مني مبلغا جعلني أنحنى وانثنى على نفسي كما لو كنت جسما لم تعد في أوصاله عظام ولا في لحمه عضلات .

وكانت رائحة السجن التي تزكم الانوف تخنقني أكثرمن اي وقت مضى ، وكانت أصوات كل هؤلاء السـجناء المختلطة بصليل سلاسلهم لا تزال تطن في اذني ، وكنت أقاسي كللا كبيرا في سجن « بيستر » ، حتى أنه كـان يبدو لي أن الله في عدله ورحمته سوف تأخذه الشـفقة بي فيرسل الى طائرا صغيرا على الاقل ليغرد هنا أمامي على حافة هذا السقف الاردوازي المنحدر .

ولست ادري أن كان الله الرحيم هو الذي استجاب عندئذ لدعائي أو أنه الشيطان الرجيم ، فقد سمعت في نفس اللحظة تقريبا صوتا يرتفع تحت نافذتي ولكنه لم يكن صوتا لطائر ، وأنما كان أجمل من ذلك بكثير .. كان صوتا نقيا ، صوتا نضرا شجيا لفتاة في الخامسة عشرة ..

فرفعت راسى فجأة كانسان ادركه الفزع ، واخـــذت استمع فى نهم الى الاغنية التى كانت ترددها الصبية فى نغم بطىء حزين كأنه هديل الحمام .. فجاءنى صوتها ينوح قائلا :

كان ذلك فى شارع « ماى » ..
حيث اعتدى على قهرا ثلاثة اشقياء ..
ثلاثة ملاعين هجموا على ..

ولم استطع أن أعبر عن مدى مرارة الصـــدمة التى احسست بها فى تلك اللحظة .. واستطرد الصوت يقول:

لقد هجموا على وطرحونى ارضا .
ومر شاب من حينا مصادفة .
فقلت له : اننى فى محنة ..
فبلغ ذلك لفتيان حينا الشجعان !
فقال لى : « انى هززت شجرة البلوط
ونزعت منها كثيرا من الاغصان »
فأوسعهم ضربا حتى تركونى
وفررت وحذائى ممزق ، وكذلك ملابسى
لسوف ارقص مع هذا الفتى فى يوم العيد

ولم يسبق لى أن سمعت هذه الاغنية من قبــل ، وكنت لا استطيع أن اسمع المزيد من كلماتها التى كانت تحمل بين طياتها شكوى مفهومة وغامضة معا .. كما غنت الفتــاة كذلك اغنية تقص شجارا وقع بين مجرم وبين رجـــال البوليس ، وتتحدث عن لص يقابل شخصا ويرسله الى زوجته بهذه الرسالة الرهيبة : « انى قتلت رجلا وقبض

على » ، واغنية اخرى (١) جاء بها : أن سيدة ذهبت الى قصر « فرساى » لتشكو مجرما الى الملك ، وأن صاحب الجلالة قد ثار لذلك ، وقال متوعدا المذنب انه : «سيجعله يرقص دون أن تكون هناك « أرضية » تحت قدميه ! »

كانت الصبية تردد كل تلك الاغانى فى نغمة حلوة تفيض بالرقة والحنان ، وفى صوت لم تسمع الأذن امرىء قط أشجى ولا أعذب منه ! حتى اننى جمدت فى مكانى محطما مبهوتا تغمرنى الحسرة والاسف ! فقد كانت كل تلك الكلمات الفظيعة المنبعثة من هذا الفم النضر الجميل شيئا يبعث على الاشمئزاز حقا .. كانت تبدو وكأنها لعاب قوقعة فوق وردة يانعة ؟

وما أنا بمستطيع أن أصور ما كنت أشعر به وقتئذ ، لقد كنت مجروحا ، ومسرورا فى آن واحد ! ان لهجة الكهف والليمان ، هذه اللغة الدامية الفظة ذات السرنة الكئيبة والطابع العامى (٢) التى امتزجت بصوت فتاة يافعة فى فترة انتقال لطيفة بين صوت طفلة وصوت امرأة ، كل تلك الالفاظ رديئة الصياغة كانت الفتاة تغنيها ، وترتلها ، وتنظمها دررا ثمينة .

آه ! ما أشد عار السجن وشناعته ! ان فيه لسما يلطخ كل شيء . كل شيء فيه يذبل ، حتى أغنية فتاة لا تتجاوز الخمسة عشر ربيعا .. اذا عثرت فيه على طير

(١) ترجمنا مضمون هذه الاغنية بمعناها فحسب لتعذر نظمها فى ابيات موزونة ومقفاة كما وردت فى النص الفرنسى .

(٢) اللهجة الشائعة بين الدهماء والطبقات المنحطة أو الجاهلة.

وجدت جناحه ملطخا بالوحل .. وان قطفت به زهرة وشممتها ، تأذيت من رائحتها البغيضة .

آه لو كنت أستطيع الفرار ، لجريت عندئذ خـــلال الحقول بكل ما أوتيت من قوة وعزم !

كلا ، فليس ينبغي أن اجرى وقتئذ ، فذلك يلفت الانظار ويبعث على الريبة والشك ، بل ان الامـر على العكس ، اذ يجب على أن اسير فى تؤدة وانا اغنى مرفوع الرأس .. يجب أن احاول جاهدا أن احصـــل على قميص عتيق مفتوح ازرق اللون وبه رسوم حمراء ، فهذا يحكم التنكر ، اذ أن كل بائعى الخضر فى الضـــواحى يلبسون مثل ذلك .

انى أعرف على مقربة من « أركوى » (١) أجمـة من الاشجار بجوار مستنقع من المستنقعات حيث كنت اتردد مع رفاقى لصيد الضفادع فى يوم الخميس من كـــل أسبوع عندما كنت طالبا بالمدرسة الثانوية ، وســـوف أختبىء هناك الى أن يهبط الظـلام ، ثم أستأنف سـيرى تحت جنح الليل كى أذهب الى « فانسين » .. كلا ، كلا .. فسوف يحول النهر هناك بينى وبين المضى قدما ، سوف أيمم اذن شطر « أرباجون » ــ وسوف يكون من الاوفق أن أتجه ناحية « سان جرمان » ، ثم أذهب الى « الهافر » (٢) وأستقل أية سفينة الى انجلترا ــ ولـكن ما جدوى كل ذلك ؟ اذ لا أكاد أصل الى « لونجيمو » حتى يمر بى جندى من رجال البوليس ويطلب الى أن

(١) مكان فى ضواحى باريس .
(٢) ميناء فرنسى على بحر المانش .

ابرز بطاقتى الشخصية ! .. اننى هالك لا محالة ! لقد ضعت !

آه ! يالى من حالم بائس ! على اذن ان أحطم الجدار اولا .. ان احطم الجدار الذى يسجننى وسمكه ثلاث اقدام ! ..

الموت ياالهى ! .. الموت !

عندما أفكر فى انى اتيت الى هنا ، الى « بيستر » وانا غلام صغير لارى البئر الكبيرة .. والمجانين آه !

***

وفيما انا عاكف على كتابة هذا كله ذوى نور مصباحى وطلع الفجر .. ثم دقت ساعة الكنيسة الصغيرة تعلن السادسة .

ما معنى ذلك ؟ .. ان حارس زنزانتى النوبتجى دخل لتوه عندى وخلع قبعته ، ثم حيانى معتذرا عما سببه لى من ازعاج ، وطلب منى أن أعين له ما أريده طعاما لفطورى ، طلب منى هذا ، وهو يحاول جاهدا ان يكسب نبرات صوته الغليظ الخشن مسحة من الرقة والظرف .

فاجتاحتنى رجفة عاتية ، وهمس فى أعماقى صوت يقول :

« ترى أيتم اليوم تنفيذ الحكم ؟ »

نعم .. انه اليوم !

لقد حضر مدير السجن بنفسه لزيارتى وسألنى كيف يستطيع ان يرضينى وكيف يمكن أن يكون نافعا لى فى اى شىء ، وعبر لى عن أمله فى ألا تكون لدى أية شكوى منه

أو من مرءوسيه ، ثم سألني في اهتمام عن صحتي ، وعن الحال التي قضيت فيها الليل .. وخاطبني بقوله : « ياسيدي » وهو يغادر الزنزانة !

انه اليوم !

ان هذا السجان لا يعتقد ان لدى شكوى منه أو من مرءوسيه .. انه على حق ، فسوف لا تنفعني الشكوى .. انهم قد قاموا بواجبهم فحرسوني خير حراسة ، وفوق هذا ، فقد كانوا مؤدبين عند وصولي وعند رحيلي .. أفلا ينبغي اذن ان أكون راضيا مسرورا ؟

ان هذا السجان الطيب انما يمثل السجن مجسما ، بابتسامته الساذجة العذبة ، وكلماته الرقيقة اللطيفة ، وعينه التي تمتدح وتتجسس ، ويديه الضخمتين العريضتين .. ان سجن « بيستر » قد تقمص هذا الرجل .. كل شيء من حولي هو سجن بالنسبة الى ! اني أجد السجن في جميع الصور والاشكال : أجده في صورة الانسان كما أجده في شكل القضبان أو في المزاليج والاقفال .. فهذا الجدار سجن من الحجر ، وذاك الباب سجن من الخشب ، وهؤلاء الحراس سجن من لحم وعظم .. ان السجن كائن خفي رهيب شامل لا يتجزأ ، نصفه سكن ونصفه انسان ، وأنا فريسته ، وهو يحيطني بمخالبه ويحتضنني بكل جوارحه وثناياه ، فهو يغلق على جدرانه المبنية من الجرانيت ، ويقفل على بأقفال من الحديد ، ويراقبني بعيني السجان .

آه ! يالي من بائس . ماذا سيحدث لي ؟ ماذا سيفعلون بي ؟

الكــــاهــن

انني الآن هادىء ، فقد انتهى كل شيء ، انتهى تماما ..
لقد خرجت من دوامة القلق المرعبة التى كانت قد
القتنى فيها زيارة الطبيب . ذلك انى اعترف بانى كنت
لا ازال آمل ، اما الان ، والحمد لله ، فلم يعد ثمة
امل لى .

وهذا هو ماحدث منذ لحظة :

حينما دقت الساعة معلنة السادسة والنصف ـ بل ان
ذلك كان فى الربع الاخير من هذا النصف ـ فتح باب
زنزانتى من جديد ودلف اليها شيخ اشيب الشعر ؛
يرتدى « ردنجوتا » قاتم اللون . وفتح الرجل«الردنجوت»
قليلا فرايت ثيابه البيضاء ، « وياقته » الناصعة ؛
لقد كان قسيسا .

لم يكن هذا القسيس واعظ السجن ، وهذا امر
كئيب . وجلس الرجل قبالتى ، وقد ارتسمت على شفتيه
ابتسامة عريضة ، ثم هز راسه ورفع بصره الى السماء ،
اعنى الى السقف ، سقف الزنزانة ! .. لقد فهمت !

وقالَ لى رجل الدّين :

ــ أانت على استعداد يابنى ؟

فاجبته قائلا فى صوت مختنق :

ــ لست مستعدا ولكننى « جاهز » !

ومع ذلك ، فقد غامت عيناى ، واضطرب بصرى ، ونضح من كل اعضاء جسمى عرق بارد غزير ، واحسست بصدغى ينتفخان ، وامتلأت اذناى بالطنين .

وكان الشيخ الطيب يتكلم ، بينما كنت اترنح على مقعدى كانسان نائم ، او هذا هو على الاقل مابدا لى فى تلك اللحظة ، واحسبنى اذكر انى رايت شفتيه تتحركان كما رايت بريق عينيه ، واهتزاز يديه .

وفتح باب الزنزانة مرة اخرى ، فاخرجنى صرير المزاليج من ذهولى وقطع على الرجل حديثه ، ثم دخل سيد لم اره من قبل ، يرتدى ثيابا سوداء ومعه مدير السجن . وقدم الرجل نفسه الى ، وحيانى فى احترام عميق . وكانت ترتسم على وجه الرجل مسحة من حزن « رسمى » مصطنع ، هو نفس الحزن الذى تراه على وجه اللحاد « الحانوتى » ومعاونيه ، وكان يمسك فى يده ورقة ملفوفة .

وقالَ لى الرجلُ وهو يبتسم ابتسامة مؤدبة :

ــ سيدىَ .. انى « محضر » من قبلْ محكمة باريس الملكية ، ويشرفنى أن احمل لكَ رسالة من قبل السيد النائب العام .

فاجبته قائلا بعد ان ذهب عنى اثر الهزة الاولى ، واستعدت حضور ذهنى كله :

ـ انه السيد النائب العام ذاته الذى طالب برأسى فى الحاح ، وانه لشرف كبير لى ياسيدى أن يكتب الى ، وآمل ان يثلج موتى صدره ويدخل على نفسه أبلغ السرور اذ يشق على أن أعتقد أنه ألح فى طلب موتى بحماس كبير فى الوقت الذى لن يهتم فيه بهذا الامر بعد الآن .

لقد قلت هذا كله وسكت لحظة ، ثم استطردت أقول فى صوت ثابت النبرات : « اقرأ ماعندك اذن ياسيدى ! »

فأخذ « المحضر » يقرأ على رسالة طويلة ، وهو يتفنى فى نهاية كل سطر ، ويتردد فى وسط كل كلمة . كان ذلك رفضا للطلب الذى تقدمت به لاستئناف الحكم . واضاف الرجل قائلا بعد أن فرغ من تلاوة رسالة النائب العام ، ودون أن يرفع بصره عن أوراقه المدموغة : « ان الحكم سينفذ اليوم فى ساحة الاعدام ، وسوف نرحل فى تمام الساعة السابعة والنصف الى سجن « لاكونسيير جورى » . هل لك أن تتفضل فتتبعنى ياسيدى العزيز ؟ »

وكنت لم أعد أنصت الى الرجل منذ وقت ليس بقصير وكان مدير السجن يتبادل الحديث مع القسيس ، بينما ظلت عينا « المحضر » مثبتتين على أوراقه ، وكنت أنا الى جوار الباب الذى كان لا يزال مواربا : آه ! أيها التعس ! هناك فى الدهليز أربعة حراس معهم بنادقهم !

وأعاد « المحضر » سؤاله على وهو ينظر الى فى هذه المرة ، فأجبته قائلا :

ـ سأتبعك ياسيدى فى أى وقت تريد . انى رهن اشارتك !

فحيانى قائلا وهو يتهيأ للانصراف :

ـ سوف اتشرف بالحضور لاصطحابك معى بعد نصف ساعة .

وانصرف الجميع عندئذ وتركونى وحدى .

***

يا الهى ! أما من وسيلة للفرار ؟ اية وسيلة كانت ؟ يجب ان أهرب . هذا لابد منه ، وفى الحال ! من الابواب: من النوافذ ، أو من خلال فتحات أخشاب السقف ، حتى لو كلفنى هذا أن أترك لحمى على هذه الالواح ! يااللغضب! يا للشياطين ! يا للعنــة ! لسوف تلزمنى اشهرا باكملها لنقب هذا الجدار ، ان كانت هناك آلات جيدة ، مع أنى لا أملك مسمارا واحدا ، ولم تعد أمامى حتى ســاعة واحدة !

الفصل الثالث :

الطريق إلى الموت

فى سجن «لاكونسييرجورى»

هاأنذا قد نقلت كما قال « المحضر » ، غير أن الرحلة جديرة بأن تروى .

كانت الساعة تدق السابعة والنصف عندما ظهر المحضر مرة أخرى على عتبة زنزانتى . وقال لى الرجل : « انى فى انتظارك ياسيدى » .

يا للأسف ! انه كان ينتظرنى حقا ، وكان معه آخرون!

فنهضت من مكانى وخطوت خطوة واحدة ، فبدا لى لحظتها أنى سأعجز عن أن أخطو خطوة أخرى لشدة ما كنت أشعر به من ثقل فى رأسى وخور فى ساقى ، ولكنى مع ذلك تمالكت نفسى ، وتابعت السير فى شىء من الارادة والثبات . والقيت نظرة أخيرة على سجن « بيستر » قبل أن أغادره — فقد كنت أحب زنزانتى هذه — ويؤسفنى أنى تركتها خالية ومفتوحة ، مما أكسبها مظهرا غريبا !

انها لن تظل هكذا طويلا على كل حال ، فقد كان حاملو مفاتيح السجن يقولون أنهم ينتظرون شخصا سوف ينزل فيها فى هذه الليلة ، وهو رجل محكوم عليه :

كانت محكمة الجنايات بصدد النظر في أمـره في هذه الساعة .

ولحق بنا الواعظ في نهاية الدهليز ، وكان الرجل قد فرغ للتو من تناول طعامه .

وعند خروجي من الزنزانة ، أمسك مدير السجن بيدى في عطف ، وشدد على الحراسة بأربعة جنود من حراس السجن القدامى .

وأمام باب مستشفى السجن ، صاح بي شيخ يحتضر قائلا : « الى اللقاء ! »

وبلغنا الفناء واستنشقت الهواء ، فأراحنى هذا بعض الشيء ولم نمش طويلا ، اذ كانت هناك عربة تجرها جياد قوية واقفة في الفناء الاول .. آه ! انها نفس العـربة التي كانت قد نقلتنى الى هنا . كانت من نوع العـربات المستطيلة المكشوفة ، ومقسمة الى قسمين بقضبان من حديد ، تتقاطع على شكل شبكة شديدة الكثافة ، وكان لكل قسم من قسميها باب ، أحدهما في مقدمة العربة ، والثاني في مؤخرتها . وكانت العربة بأسرها شيئا بالـغ القذارة ، أسود اللون حالكه ، ومغطى بالغبار ، الى حد ان عربة نقل الموتى كانت تبدو الى جوارها كأنها عربة لتتويج الملوك .

وقبل ان أدفن في هذا القبر ذى العجلتين ، ألقيت نظرة على الفناء ، نظرة انسان يائس ، كان يأمل بها أن تتداعى من أمامه الجدران . كان الفناء وهو مكان صغير مـزروع بالاشجار ، كان ممتلئا بالمتفرجين أكثر مما كان يوم تكبيل

المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة بالاصفاد اذ كان الناس قد احتشدوا بسرعة مذهلة .

وكان مطر الخريف يتساقط وقتئذ كما حدث يوم رحيل السجناء المكبلين بالسلاسل ، وهو مطر دقيق بالغ البرودة لا يزال يهطل في هذه الساعة التي اكتب فيها ، وسوف يستمر طول النهار دون شك ، وسوف يستمر كذلك حتى بعد أن أرحل عن هذه الدنيا .

وكانت الطرق مملوءة بالمياه « وبالمطبات » ، وكان الفناء غارقا في الماء والوحل ، وخامرني ساعتها شعور بالسرور لرؤية هذا الجمهور في الوحل .

وصعدنا الى العربة ، فركب المحضر مع أحد الحراس في القسم الامامي منها وركبت أنا مع القسيس وحارس آخر في المؤخرة ، وكان معنا أربعة جنود على ظهور الخيل يحيطون بالعربة ، وهكذا كان هناك ثمانية رجال — اذا استثنينا سائق العربة — يحرسون رجلا واحداً .

وفيما كنت أهم بالصعود الى العربة رأيت امرأة عجوزا ذات عينين رماديتين كانت تقول : « انى افضل هذا كثيرا على السلاسل ! »

انني افهم ذلك ، فهو منظر يحيط به المرء بنظرة واحدة ، يحيط به في سهولة وسرعة أكثر مما يحيط بمنظر السلاسل ، وهو منظر جميل مثل هذا المنظر الاخير ، ولكنه أكثر منه راحة ، وليس فيه ما يسليك ، اذ أنه ليس هناك سوى رجل واحد ، وعلى هذا الرجل وحده يقع من الكوارث ما يعادل الكوارث التي تقع على كل المحكوم

عليهم بالأشغال الشاقة مجتمعين ، غير أن الشقاء فيه ليس موزعا بين كثرة من الناس ، وانما هو مركز ، كالخمر المركزة تكون أكثر لذة للشاربين .

وتحركت العربة فند عنها صوت مكتوم وهى تمر من تحت قبوة الباب الكبير ، ثم خرجت الى عرض الشارع، فأغلق خلفها باب سجن « بيستر » الثقيل . وكنت أحس فى ذهول بأنى محموم كانسان فاقد الوعى ، لا يستطيع أن يتحرك أو يصيح ، ويشعر بأن أناسا يدفنونه ، وكان رنين الاجراس الصغيرة المعلقة فى رقاب الخيل يصل الى سمعى فى غير وضوح ، تلك الاجراس التى كانت تجلجل بطريقة منتظمة فى رقاب جياد العربة وكأنها مصابة « بالزغطة » ، وكانت عجلات العربة المغطاة بالحديد تتخبط على الطريق المرصوف ، أو تحتك بصندوق العربة وهى تنتقل من « مطب » الى « مطب » ، محدثة صوتا يختلط بوقع سنابك الخيل التى تحيط بالعربة لحراستها ، وفرقعة السوط الذى يحمله السائق ، كل ذلك كان يبدو لى كأنه دوامة تحملنى وتلفنى فى طياتها .

ومن خلال قضبان نافذة صغيرة فى العربة كانت مفتوحة امامى ، كانت عيناى مثبتتين بصورة آلية على كلمات محفورة بأحرف كبيرة فى الجدار فوق الباب الرئيسى لسجن « بيستر ! » « ملجأ الشيخوخة » . كنت أقول فى نفسى : عجبا ! يبدو أن هناك اناسا يشيخون هنا !

وكما يفعل المرء بين اليقظة والنوم ، اخذت اقلب هذه الفكرة على كل جوانبها فى نفسى الخاملة من الالم ، وفجاة،

تغير المنظر الذى كنت أراه من خلال تلك الطاقة الصغيرة فى اللحظة التى انتقلت فيها العربة من الشارع العريض الى الطريق الرئيسى ، واخذت أبراج كنيسة « نوتردام» تبدو لعينى باهتة زرقاء فى ضباب باريس من خلال ذلك المنفذ الضيق ، فتغيرت كذلك وجهة نظرى على الفور . ذلك انى كنت قد أصبحت آلة مثل هذه العربة . واعقبت فكرة سجن « بيستر » فكرة أبراج « نوتردام » ، فقلت فى نفسى وانا أبتسم فى غباء : أن الذين يكونون فى أعلى البرج حيث يوجد العلم سوف يرون مرور العربة على صورة أوضح .

واظن أن القسيس قد استأنف حديثه معى فى تلك اللحظة بالذات ، فتركته يتكلم وأنا أستمع اليه فى صبر ، اذ كان يطن فى أذنى هدير عجلات العربة ، مختلطا بوقع سنابك الخيل ، وقرقعة السوط ، وكان هذا الصوت الاخير صوتا اضافيا .

وجلست أنصت فى صمت الى وقع هذا الكلام الذى كان يطرق أذنى على وتيرة واحدة ، كأنه خرير ماء النافورة فقد كان كلامه يزيد خواطرى خمولا على خمول ، وتمر الفاظه من امامى متنوعة دائما ولكنها دائما نفس الشىء ، شأنها شأن الاشجار المرصوصة على جانبى الطريق العريض ، عندما هزنى فجأة صوت « المحضر » الموجز المتقطع ـ وكان جالسا فى المقدمة ـ اذ جاءنى يقول فى لهجة تكاد تفيض مرحا : « حسنا يا سيدى القسيس ! ماهو الجديد الذى تعرفه ؟ »

وكان الرجل وهو يقول ذلك ملتفتا نحو القسيس ؛

فلم يرد عليه هذا الاخير ، اذ كان يتحدث الى دون انقطاع، وكان صوت العربة يصم أذنيه عن السماع . فاستطرد « المحضر » قائلا وهو يرفع عقيرته فى هذه المرة ، كي يعلو صوته على هدير العجلات : « حقا انها عربة جهنمية ! » وسكت لحظة قصيرة ثم أردف يقول : « انها « المطبات » دون شك ، هى التى تجعل أحدنا لا يسمع الآخر . ماذا كنت اريد أن أقول ؟ آه ! نعم ، قل لى ياسيدى القسيس لو تفضلت .. هل تعرف الخبر الجديد فى باريس اليوم ؟ »

فانتفضت كما لو كان الرجل يتحدث عنى ، بينما أجابه القسيس قائلا بعد أن سمعه أخيرا :

ـ كلا ، لم أجد متسعا من الوقت لقراءة صحف الصباح ، وسوف أرى ذلك فى المساء . انني حينما أكون مشغولا هكذا طول اليوم ، أوصى البواب بأن يحتفظ لى بالصحف حتى أقرأها عند عودتى فى المساء .

ـ أوه ! من المستحيل انك لا تعرف خبر باريس ! خبر هذا الصباح !

وهنا تدخلت فى الحديث قائلا :

ـ أحسب انى اعرف هذا الخبر

فنظر الى المحاضر ثم قال :

ـ انت ! أحقا ؟ اذن فما هو رأيك ؟

فقلت له :

ـ انك متحمس للاستطلاع !

فأجابنى الرجل بقوله :

ـ لماذا ياسيدى ؟ ان لكل منا رايه السياسى ، وانا احترمك الى حد انى اعتقد أن ليس لك راى فى هـــذا الموضوع . اما انا فانى موافق تماما على اعادة تـــكوين الحرس الوطنى . لقد كنت جاويش سريتى وكان ذلك حقا شيئا لطيفا للغاية ..

فقاطعته قائلا :

ـ كنت أظن انك لا تعنى هذا الخبر .

ـ وأى خبر لديك اذن ؟ لقد كنت تقول انك تعرف الخبر .

ـ كنت أتحدث عن خبر آخر تهتم به باريس كذلك .

ولم يفهم الغبى ، غير أن حبه للاستطلاع تيقظ ، فقال فى لهفة :

ـ خبر جديد ؟ وانى لك أن تعرف هذه الاخبار بحق الشيطان ؟ ماهو هذا الخبر الذى لديك اذن يا سيدى العزيز ؟ أتعرف هذا الخبر يا سيدى القسيس ؟ هل انت أكثر منى دراية بهذه الاخبار ؟ انبئونى بهذا الخبر مـــن فضلكم . ما الذى حدث ؟ الا تفهموننى ؟ انى أحـــب الاخبار لانى اقصها على السيد رئيس المحكمة فهـــذا يسليه كثيرا .

واخذ المحضر يهذى بمئات من مثل هذا الهذيان وهو يلتفت نحو القسيس تارة والى تارة أخرى ، فكنت لا ارد عليه الا بهزة من كتفى ، فقال لى آخر الامر :-

ـ حسنا ! فيم تفكر اذن ؟

ـ افكر فى انى لن افكر بعد هذا المساء !

ـ آه ! أهو كذلك ؟ .. هيا ! انك حزين اكثر مما ينبغي . لقد كان السيد كاستانج (١) يتحدث رغم محنته .

وسكت الرجل لحظة ثم اضاف يقول : « لقد رافقت كذلك السيد « بابا فوان » (٢) ، وكان يرتدي قبعته الفاخرة ويدخن سيجارا . أما فتيان مدينة «لاروشيل»(٣) فقد كانوا لا يتحدثون الا فيما بينهم ولكنهم كانوا يتحدثون على اية حال .

وصمت المحضر لحظة اخرى ثم عاد يقول : انهم كانوا مجانين ! كانوا متحمسين للغاية ! وكان يبدو عليهم أنهم يحتقرون كل الناس . اما أنت ايها الشاب فاني أجدك مفكرا حقا .

فقلت له :

ـ أنا شاب ؟. اني اكبرك في السن ؟ ان كل ربع ساعة يمر يجعلني أشيخ بمقدار سنة !

فالتفت « المحضر » نحوي ونظر الي في دهشة تنطوي على الغباء لبضع دقائق ثم شرع يضحك ضحكا ثقيلا وهو يقول :

ـ اوه ! عجبا ! اتريد ان تمزح ؟ انت اكبر مني سنا وقد اكون في سن جدك !

(١) مذنب سبقت الاشارة اليه في الفصل التالي وهو مجنون رهيب أعدم لانه دس السم لصديق له كان يتولى علاجه .

(٢) مجنون رهيب كان يقتل الاطفال بضربة من سكين في رؤوسهم ، ورد ذكره في نفس الفصل .

(٣) ضباط صف أربعة احدهم يدعى (بوريس) وقد اشرنا اليهم .

فاجبته قائلا فى جد ورزانة :

ـ انى لا ارغب فى المزاح .

وفتح الرجل علبة طباق كانت معه وهو يقول :

ـ خذ هذه ياسيدى العزيز ولا تغضب . خذ مضغة من الطباق ولا تحتفظ لى فى نفسك بأية موجدة على .

ـ لا تخش شيئا فلن يتسع الوقت أمامى للغضب عليك

وفى تلك اللحظة ، ارتطمت علبة الطباق بالقضبان التى كانت بينى وبينه فى عنف ، من جراء أحد « المطبات » فسقطت مفتوحة من يده تحت قدمى الجندى فصاح « المحضر » قائلا :

ـ يا لهذه القضبان اللعينة !

ثم التفت الى وهو يقول : « حسنا ! الست شقيا ؟ هأنذا قد فقدت كل مامعى من طباق !

فأجبته قائلا وأنا ابتسم ابتسامة شاحبة :

ـ انى افقد أكثر مما تفقده أنت .

وحاول الرجل أن يجمع طباقه وهو يتمتم قائلا من بين اسنانه :

ـ اكثر مما افقد ؟ هذا كلام يسهل قوله ! سوف أبقى بغير طباق حتى نبلغ باريس ! ان هذا لشىء رهيب !

وواساه الواعظ فى تلك اللحظة ببعض كلمات العزاء . ولست ادرى ما اذا كنت مفكرا مهموما ، ولكن بدا لى أن كلمات القسيس كان يتابع بها الوعظ الذى كان قد وجه الى بدايته ، ورويدا رويدا سار الحديث بين القسيس

و « المحضر » ، فتركتهما يتحدثان معا وانصرفت الى خواطرى .

ولاشك فى انى كنت لا ازال مستغرقا فى التفكير حينما اقتربنا تماما من أبواب باريس ، ولكن خيل الى أن ضوضاء المدينة صارت أكثر من المألوف . وتوقفت العربة لحظة امام « كشك » الجمارك حيث قام بتفتيشهما موظفو جمرك البلدية ولو أن العربة كانت تحمل خروفا أو ثورا يساق الى المذبح لوجب ان تدفع من أجله مبلغا من المال ، غير أن الراس البشرى لا تدفع عنه رسوم جمركية فمررنا .

واجتزنا الضواحى ثم دخلت العربة مسرعة فى تلك الشوارع العتيقة المعقدة فى حى « سان مارسو » وحى « لاسيتى » التى تتلوى وتتقاطع كأنها آلاف الطرق فى مدينة النمل ، وكان ضجيج العربة قد أصبح فوق«بلاطها» عاليا متتابعا الى حد اننى لم أعد أسمع اى شىء آخر . وكنت كلما ألقيت نظرة من خلال الطاقة الصغيرة المربعة، بدا لى أن أمواجا من المارة كانت تتوقف لتنظر الى العربة المنكودة وأن شراذم من الصبية كانت تعدوا وراءها ، كما بدا لى أنى كنت أرى هنا وهناك ، من حين لآخر ، عند مفارق الطرق رجلا أو امرأة عجوزا فى ثياب مهلهلة ــ واحيانا كليهما معا ــ وهما يمسكان فى أيديهما برزمة من الورق المطبوع (١) كان المارة يتخطفونه ،ويفتحان

---

(١) سبقت الاشارة الى أن أحكام الاعدام واوقات تنفيذها كانت تطبع على اوراق تباع الواحدة منها لقاء جزء من المليم وصفه المؤلف فى موضع سابق بانه (صلدى) ملطخ بالدم .

قميهما كأنهما يصيحان صياحا عاليا .

وكانت الساعة تدق معلنة الثامنة والنصف فى بنـــاء المحكمة لحظة وصولنا الى فناء سجن « لاكوسييرجورى» ان منظر هذا السلم الكبير ، وتلك الكنيسة الصـــغيرة السوداء ونوافذ « زنزانات » السجناء الكئيبة قد ارسل فى بدنى برودة الثلج ، وبدا لى فى اللحظة التى وقفت العربة فيها أخيرا أن ضربات قلبى على وشك أن تتوقف كذلك .

واستجمعت اطراف قواى الواهنة حينما فتح باب العربة فى مثل وميض البرق ، وقفزت خارج هـــذه الزنزانة المتحركة وتقدمت فى خطوات واســـعة تحت قبوة السجن بين صفين من الجنود . آه ! هاهـــو ذا الجمهور قد تجمع سريعا فى طريقى .

***

وكنت أشعر بانى أكاد أكون حرا وعلى ســـجيتى طيلة اللحظات التى اجتزت فيها دهاليز دار القضاء ، ولكن عزمى قد تخلى عنى عندما فتحوا أمامى أبوابا منخفضة وممرات داخلية وسلالم سرية ، ودهاليز أخـرى طويلة مخنوقة ومكتومة لا يطرقها الا الذين يصدرون الاحكام أو تصدر عليهم الاحكام .

وكان « المحضر » فى رفقتى على الدوام ، اما القسيس فكان قد تركنى ليعود بعد ساعتين . ان الرجل كـــانت لديه مشاغله .

وقادونى الى مكتب المدير حيث أسلمنى المحضر اليه « يدا بيد » . لقد كان هناك تبادل ، اذ رجاه المدير أن

ينتظر لحظة قائلا له أن لديه صيدا سيكون معدا للتسليم على الفور كي ينقله مباشرة الى سجن « بيستر » فى نفس العربة . فقلت لنفسى ان هذا الصيد هو دون شك ذلك المحكوم عليه الذى يجب أن ينام الليلة على حـــزمة القش التى لم يتسع الوقت امامى لاستهنكيا .

فقال « المحضر » للمدير : « حسنا ، سوف أنتظر لحظة ، وسنقوم بعمل المحضرين (١) معا ان كان هـــذا ييسر الامور .

وفى انتظار ذلك ، وضعونى فى مكتب صغير ملاصق لمكتب المدير ، حيث تركت وحدى وأوصدت الابواب على فى احكام .

ولست أدرى فيم كنت أفكر ولا كم من الوقت مضى على هناك ، عندماطرقت أذنى ضحكة عنيفة مفاجئة ايقظتنى من حلمى . فرفعت عينى وأنا أرتجف ، فعرفت أنى لم أعد وحدى فى هذه الزنزانة ، اذ كان معى رجل فى نحـــو الخامسة والخمسين من عمره ، متوسط القامة ، محدودب الظهر ، أشيب الرأس بعض الشيء ، ووجهه حافـــل بالتجاعيد . وكانت اعضاء الرجل قوية عريضة ، أمـــا عيناه فرماديتا اللون ، بهما حور بسيط ، وتعلو شـــفتيه ابتسامة مرة . وكانت هيئته تبعث على الاشــــمئزاز ، بقذارته وثيابه المهلهلة التى لا تـــكاد تستر الا نصف جسمه .

ويبدو ان الباب كان قد فتح ليزج بهذا الرجل الى داخل هذه الزنزانة الصغيرة ثم أغلق مرة ثانية دون أن

---

(١) يعنى محضرى التسليم والتسلم .

افطن الى ذلك . آه لو كان الموت يأتى هكذا !

وامعن كل واحد منا النظر الى وجه الآخر لعدة ثوان وهو يمد فى ضحكته التى كانت كحشرجة المحتضر ، وانا نهب لمزيج من الدهشة والذعر .

فقلت له اخيرا :

ــ من أنت ؟

فأجابنى الرجل قائلا :

ــ هذا سؤال عجيب .. انا واحد منهم !

فأعدت عبارته متسائلا فى دهشة :

ــ واحد منهم ! مامعنى هذا الكلام ؟

ولاحظت ان هذا السؤال قد ضاعف مرحه .

فصاح قائلا وهو يضحك فى قهقهة مدوية :

ــ معناه ان السكين ستلعب برأسى بعد ستة اسابيع كما ستداعب رأسك بعد ست ساعات .. ها ! ها ! ها ! يبدو أنك قد فهمت الآن !

والواقع أنى شعرت فى تلك اللحظة بأن الدماء تفيض من وجهى وبأن شعرى يقف فى رأسى . لقد كان هذا الرجل هو خليفتى فى سجن « بيستر » الذى كانوا ينتظرونه هناك ، كان هو الرجل الذى صدر عليه اليوم حكم بالاعدام .

وصمت الرجل لحظة قصيرة ثم تابع حديثه فقال :

ــ ماذا تريد ؟ هذه هى قصتى ، قصتى انا : اننى ابن لرجل بائس اتعب « شارلو » (١) نفسه ذات يوم

(١) لفظة من اللفظات المستعملة فى لغة السجون ويقصد بها الجلاد . كما يقال عندنا (عشماوى) .

للأسف في ربط الحبل حول عنقه ، وكان ذلك في عهد المشنقة والحمد لله ، فلم أكد أبلغ السادسة من عمري حتى وجدت نفسي بلا أب ولا أم . وكنت في الصيف أتمرغ في التراب على قارعة الطريق كي يلقى الي بعضهم « صلديا » من خلال أبواب العربات . أما في الشتاء فكنت أسير حافي القدمين في الوحل وانا انفخ في يدي المحمرتين من شدة البرد ، وكانت فخذاي تطلان من خلال سروالي .

وبدات أستعمل يدي في سن التاسعة ، فكنت من حين لآخر أنشل جيبا أو أسرق معطفا ، وفي سن العاشرة كنت « نشالا » ، وما أن بلغت السابعة عشرة حتى صرت لصا ، فكنت أحطم اقفال الحوانيت واستعمل مفاتيح مقلدة . ثم قبض علي بعد أن بلغت سن الرشد حسب نص القانون فأرسلوني الى الاشغال الشاقة للتجديف على ظهر السفن . ان الليمان شيء شاق ؛ فالمرء ينام فيه على لوح من خشب ، ويشرب ماء صرفا ، ويأكل خبزا أسود ، ويجر وراءه كتلة سخيفة من الحديد لا فائدة منها ، ويتلقى ماتيسر من ضربات العصى وضربات الشمس . والى جانب هذا فانهم يقصون له شعره ، وانا الذي كان لي شعر كستنائي جميل ! وعلى كل حال ، فهذا لايهم !

وقضيت مدة العقوبة ، خمسة عشر عاما انتزعت من عمري انتزاعا ! وكنت في الثانية والثلاثين عندما أعطوني ذات صباح أمرا بالافراج عني من الليمان ، مع سبعين فرنكا جمعتها لنفسي خلال خمسة عشر عاما من الاشغال الشاقة ، كنت أعمل خلالها ست عشرة ساعة في اليوم ،

وثلاثين يوما فى الشهر ، واثنى عشر شهرا فى السنة .
وكان هذا سواء لدى ، فقد كنت اريد بهذه السبعين فرنكا ان أصبح رجلا شريفا ، وكنت أنطوى تحت اسمالى البالية على مشاعر أكثر مما يوجد منها تحت ملابس قسيس ، ولكن .. فلتبارك الشياطين فى صحيفة السوابق ! لقد كانت وثيقة الافراج عبارة عن ورقة صفراء مكتوب عليها : « .. أفرج عنه من الليمان » ، وكان لزاما على أن ابرز هذه الورقة حيثما ذهبت ، وأن اقدمها كل ثمانية ايام الى عمدة القرية التى كانوا يرغموننى على الاقامة فيها . يالها من تزكية جميلة (١) ! لقد كان الناس يخافون منى ، وكان الصبيان يفرون عندما يروننى ، وكانت الابواب توصد فى وجهى اذا مررت ! ولم يشأ احد ان يعطينى عملا ، فانفقت السبعين فرنكا على طعامى ، ثم كان على أن أعيش ، فأبديت ساعدى المفتولين هنا وهناك ، ساعدى اللذين يصلحان تماما للعمل ، ومع ذلك فقد أقفلت فى وجهى كل الابواب . وعرضت ان اعمل اليوم بأكمله لقاء خمسة عشر مليما ، ثم بعشرة مليمات ؛ واخيرا بخمسة ! ولكن دون جدوى ، فماذا افعل ؟

وشعرت ذات يوم بجوع شديد ، فكسرت بمرفقى زجاجا فى واجهة حانوت خباز وخطفت رغيفا ، واستطاع الخباز أن يمسك بتلابيبى ، فلم اتمكن من اكل الرغيف ؛ وحكم على بالاشغال الشاقة مدى الحياة فى التجديف

---

(١) يقصد التزكية المسجلة فى وثيقة الافراج عنه اذا جاء بها : افرج عنه من الليمان حيث كان محكوما عليه بالاشغال الشاقة بالتجديف فوق ظهر المراكب (م)

على المراكب ، وختموا كتفى بثلاثة أحرف من نار ، وسوف اريك هذا ان أردت . انهم يسمون هذا النوع من العدالة : « عائدا الى الاجرام ! »

هاأنذا قد عدت الى الليمان ، وقد ألقوا بى فى هـذه المرة فى ليمان « طولون » ، ووضعونى مع المجرمين العائدين الى الاجرام . وكان لزاما على أن أهرب ، ولتحقيق ذلك لم يكن أمامى الا أن أنقب ثلاثة جدران ، وأن اقطع سلسلتين ، وكان معى مسمار فى هذه المرة .

واستطعت ان أهرب ذات يوم فأطلقت مدافع الانذار . ذلك أننا معشر العائدين مثل كرادلة روما،ملابسناحمراء، وتطلق لنا المدافع عند الرحيل . لقد أطلقوا مدافعهم جزافا وبلا نتيجة . وكنت فى هـذه المرة حرا بلا ورقة صفراء ، ولكن لم تكن لدى نقود كذلك .

وقابلت رفاقا كانوا قد قضوا مدة العقوبة أو فروا من السجن ، فعرض على رئيسهم ان أكون واحدا منهم ، وكانوا قطاع طرق يغتالون الناس . فوافقت واخـذت اقتل لأعيش ، وكنا تارة نهاجم عربة نقل الركاب او البريد ، وأخرى نهاجم مسافرا يسير بمفرده ، وثالثة نهاجم تاجر ثيران يمتطى جوادا ، فكنا نسلب النقود ونترك الدابة أو العربة تهيم كيفما اتفق ، اما الرجل فكنا ندفنه تحت شجرة . ونحرص على الا تبرز قدماه ، ثم نرقص بعد ذلك فوق الحفرة التى دفناه فيها ، حتى لا تبدو الارض كأنها نبشت حديثا .

وهكذا شخت وأنا مختبىء فى الاحراش ، أنام وأنا

التحف السماء وأطارد من غابة الى غابة ، غير انى كنت حرا وملكا لنفسى على الاقل . ان لكل شيء نهاية ، وهى نهاية لا تختلف عن سواها .

وأطبق علينا البوليس ذات ليلة ، فهرب زملائى ، ولكننى وقعت — وأنا أكبرهم سنا — فى مخالب هـــذه القطط التى ترتدى قبعات موشاة بالاشرطة ، فساقونى الى هنا !

وكنت قد تدرجت فى كل درجات السجون عدا هـذه الدرجة ، فسواء سرقت منديلا أو قتلت نفسا ، فان الامر يستوى من الآن فصاعدا بالنسبة الى ، فقد كانت هناك العودة الثالثة الى الاجرام ، التى طبقت عقوبتها على فى هذه المرة ، ولم يعد أمامى الا أن أمر بالمقصلة !

لم تستغرق قضيتى وقتا طويلا ، اذ انى بدات اشيخ حقا ولم اعد اصلح لاى شيء ! ان والدى قد مات شـنقا وأنا سوف أموت بالمقصلة . تلك هى قصتى أيهـــا الزميل ! » .

وكنت قد مكثت طول الوقت مشدوها وأنا أصـــغى اليه ، ثم عاد الرجل الى الضحك بصوت أعلى ممـا كان يفعل فى البداية ، وهم بأن يصافحنى فتراجعت مذعورا الى الوراء !

فقال الرجل عندئذ :

— يبدو عليك انك شجاع ايها الصديق ، فلا تــكن جبانا أمام الموت . اتفهمنى ؟ انها لحظة سيئة ستقضيها فى ساحة الاعدام ، ولكنها ستنتهى بسرعة ! لشد ما اريد ان أكون هناك لاريك كيف يسقط الجسد ! لست أرغب

بحق السماء فى استئناف الحكم أن أرادوا أن يعدموني معك اليوم . أن نفس القسيس سيتولى أمرنا معا ، ولا يهمني أن أحصل على مخلفاتك . هأنتذا ترى انني ولد طيب ، اليس كذلك ؟ قل لى اذن ، الا ترغب فى صداقتي ؟

وخطا الى الامام خطوة ليقترب مني ، فقلت له وانا ادفعه بعيدا :

ـ شكرا لك ياسيدي .

ـ وما أن سمع الرجل اجابتي هذه ، حتى انفجر ضاحكا من جديد ثم قال :

ـ سيدى .. آه ! آه ! انك ماركيز ! انك لماركيز !

فقاطعته قائلا :

ـ ياصديقي ! انى بحاجة الى ان أخلو الى نفسي ، فدعني وشأني .

ودفعته جدية كلامي الى التفكير فجأة ، فهز رأسه الرمادي الذى يكاد يكون أصلع ، ثم حك بأظافره فى صدره ذى الشعر الكث الذى كان يبدو من خلال قميصه المفتوح وتمتم قائلا من بين أسنانه :

ـ لقد فهمت . انك تفكر فى القسيس !

وبعد بضع دقائق من الصمت استطرد يقول ، وقد شاعت فى نبرات صوته رنة خجل :

ـ انت ماركيز وهذا حسن جدا ، ولكن لديك هنا « ردنجوتا » جميلا لن ينفعك فى شيء ؟ وسوف يأخذه السجن منك ، فأعطني اياه فسوف أبيعه لاحصل على طباق .

فخلعت « الردنجوت » الذى كنت ارتديه ، واعطيته اياه ، فأخذ يصفق بيديه فى مرح ، كأنه طفل صغير ، ولكنه حين راى أننى كنت أرتعد فى قميصى قال لى : «انك ترتجف ياسيدى من البرد ، خذ هذه والبسها فالمطر يتساقط وسوف تبتل ، ثم انه يلزمك أن تكون أكثر وقارا وأنت فوق العربة » .

قال هذا وهو يخلع سترته الخشنة المصنوعة من الصوف الرمادى ، ثم وضعها على كتفى وادخل ذراعى فى كميها ، فتركته يفعل ذلك دون اعتراض أو مقاومة .

وذهبت عندئذ لاتكىء على الجدار ، ولن أستطيع أن أصور الاثر الذى تركه هذا الرجل فى نفسى ، وكان قد اخذ يفحص « الردنجوت » الذى اعطيته اياه ، وتصدر عنه من لحظة الى أخرى صيحات تدل على السرور ، ثم اضاف يقول : « أن جيوبه جديدة تماما ! والياقة ليست بالية ! سوف أحصل فى مقابله على خمسة عشر فرنكا على الاقل .. يا للسعادة ! سيكون لدى طباق طيلة الاسابيع الستة الباقية لى على قيد الحياة ! »

وفتح الباب مرة أخرى . لقد جاءوا لاخذنا نحن الاثنين : انا الى الغرفة التى ينتظر فيها المحكوم عليهم بالاعدام ساعة التنفيذ ، وهو الى سجن « بيستر » . ووقف الرجل بين الجنود الذين كان عليهم أن يرافقوه ، وهو يقول لهم : « آه ! يا هؤلاء .. لا تخلطوا بيننا ، فقد تبادلنا ملابسنا أنا وهذا السيد . لا تأخذونى بدلا منه ، يا للشيطان ! ان هذا لم يعد يروق لى الآن ، وقد

اصبح معى ما أستطيع به أن احصل على الطباق ! » .

لقد أخذ منى هذا اللص العجوز « الزدنجوت » لاننى لم اهبه اليه فى الحقيقة ، ثم انه ترك لى سترته الكئيبة، هذه الخرقة البالية ، فكيف ستكون هيئتى اذن ؟

اننى لم اتركه يأخذ منى « الردنجوت » عن عدم اكتراث أو بداعى العطف عليه ، كلا ، ولكن لانه كان اكثر منى قوة ، ولو انى رفضت ماطلب لضربنى بقبضـــة يده الضخمة .

آه ! حسنا ! نعم ، أنه الاحسان ! لقد كنت ســاعتها أفيض بالمشاعر السيئة ، وكنت اتوق لان اخنق هذا اللص العجوز بيدى ، أو أن اسحقه سحقا تحت قدمى !

انى لاشعر بقلبى يطفح بالغضب والمرارة ، واحسب أن مرارتى قد انفجرت ! حقا ان الموت يجعل الانسان شريرا غليظ القلب .

وقادونى الى زنزانة ليس فيها الا جدران اربعــة ، بنافذتها قضبان كثيرة من حديد وببابها عدد كبير مـــن المزاليج والاقفال وهذا أمر طبيعى .

فطلبت منضدة ومقعدا وادوات للكتابة ، فاحضروا لى ماطلبت . ثم طلبت فراشا فحدجنى السجان بنظـــرة تطل منها الدهشة وكأنه يقول : « وماجدوى ذلك ؟ » .

ومع ذلك ، فقد نصبوا لى سريرا حقيرا فى ركـــن الزنزانة ، ولكن جاء فى نفس الوقت حارس ليجلس معى فيما كانوا يسمونه « غرفتى » ! ترى هل يخافون أن أخنق نفسى بالفراش ؟

السـاعة الآن العاشرة

آه يا ابنتى المسكينة ! سوف أموت بعد ست ساعات وسوف أكون شيئا قذرا يلقى به على مناضد مدرجات كلية الطب ! وسوف يشرح الراس في جهة والجذع فى جهة أخرى ، ثم يلقى بما تبقى منى فى صندوق بمقبرة « كلاماو » .

هذا هو يا ابنتى ما سيفعله بأبيك هؤلاء الرجال الذين لا يكرهنى أحد منهم ، والذين يرثون لحالى جميعا ، والذين يستطيعون جميعا انقاذى . انهم سيقتلوننى فى الحال ، فهل تفهمين هذا يا « مارى » ؟ سيقتلوننى بكل برود ، وفى حفل رسمى لمصلحة المجتمع ! آه ! يا الهى العظيم !

مسكينة أنت يا صغيرتى ! ان والدك الذى كان يحبك حبا لا مزيد عليه ، والدك الذى كان يقبل رقبتك الصغيرة المعطرة ، ولا تكف يده عن مداعبة خصلات شعرك الحريرى ، والذى كان يأخذ وجهك الجميل المستدير فى يده ، وكان يطيب له أن تقفزى على ركبتيه ، والذى كان يجعلك فى المساء تضعين يديك لتصلى لله !

من ذا الذى سيفعل لك كل هذا يا « مارى » بعد الآن ؟ من ذا الذى سيحبك ؟ ان كافة الاطفال فى سنك سيكون لهم آباء الا أنت ياماری . كيف تفقدين يا ابنتى عيد رأس السنة ، والهدايا واللعب الجميلة ، والحلوى والقبلات ؟ كيف تفقدين أيتها اليتيمة البائسة عادة الاكل والشرب ؟

آه لو كان هؤلاء المحلفون قد رأوها على الاقل ، ابنتى

« ماري » هذه الصغيرة الجميلة ! اذن لفهموا انه يجب الا يقتل اب لطفلة عمرها ثلاثة أعوام !

وعندما تكبر ابنتي ، اذا قدر لها أن تكبر ، فماذا عسى أن يكون مصيرها ؟ ان اباها سيصبح ذكرى من ذكريات اهل باريس ! لسوف تحمر خجلا مني ومن اســمي ! انها ستكون محتقرة ، ينأى عنها الناس بجنوبهم ، وحقيرة وضيعة بسببي أنا ، أنا الذى أحبها بكل مافي قلبي من حنان . آه يا « ماري » ياطفلتي الصغيرة المحبوبة ! احقا احقا انك ستخجلين مني وتشعرين نحوي بالاشمئزاز ؟

انا .. يالي من بائس ! ويا للجريمة التي اقترفتها ، ويا للجريمة التي اتسبب في أن يقترفها المجتمع !

آه ! أصحيح حقا انني سأموت قبل نهاية هذا اليوم ؟ أحقا انني انا هذا الرجل ؟ هذا الصوت المكتوم الصادر عن الصياح الذى اسمعه في الخارج ، وهذا الســيل المرح من الجماهير التي تسرع على أرصفة نهر « السين » وهؤلاء الجنود الذين يستعدون في ثكناتهم ، وهــــــذا القسيس بثيابه السوداء ، وهذا الرجل الاخر ذو اليدين الحمراوين ، هؤلاء جميعا هل هم من أجلي ؟ من أجلي انا الذي سأموت ! انا نفسي الذي استقر هنا حيا واتحرك واتنفس ، وأجلس أمام هذه المنضدة التي تشــبه اية منضدة أخرى ، ويمكن أن تكون كذلك في اي مكان آخر ! انا كذلك ، هذا الشخص الذي المسه واشعر به ، والذى ثيابه هذه طياتها !؟

***

آه لو كنت أعلم كذلك كيف صنعت هذه المنضدة وكيف

صنع هذا المقعد ، وبأية طريقة يموت المرء بهما ؟ لكن هذا شيء رهيب ، انى لا اعرفه . ان اسم هذا الشيء يثير الرعب فى النفوس ولست أفهم على الاطلاق كيف استطعت أن اكتب هذه الكلمة وأن أنطق بها .

أن تجمع الحروف التى تكون هذه الكلمة ومظهرها وشكلها قد خلقت جميعا لتوقظ فكرة مرعبة ، وان الطبيب المنحوس الذى اخترع هذا الشيء كان اسمه مسطورا فى لوحة القدر ! انها صورة غير واضحة وكئيبة للغاية تلك التى ترتبط عندى مع هذه الكلمة المشئومة ، وكل حرف من حروفها يبدو لى . كأنه جزء من تلك الآلة الرهيبة التى أظل أهدم وأبنى أجزاءها الجهنمية فى نفسى دون انقطاع .

اننى لا أجرؤ على السؤال عنها ، غير ان من المرعب الا اعرف ماهى ، ولا كيف اتصرف وانا واقف عليها ، ويبدو لى أن بها مايشبه الارجوحة ، وانهم يجعلون المحكوم عليه ينام على بطنه . آه ! ان شعرى سوف يبيض لا محالة قبل أن يسقط راسى !

ومع ذلك فقد لمحتها ذات مرة .

كنت ذات يوم أمر فى عربة الى جوار ساحة الاعدام ، وكان ذلك فى نحو الساعة الحادية عشرة صباحا . وفجأة توقفت العربة عن المسير .

وكان هناك جمهور غفير يحيط بالساحة ، واخرجت راسى من نافذة العربة فرأيت جموعا حاشدة تملأ المكان وتزحف على أرصفة نهر « السين » ، وكان الرجال

والنساء والاطفال يقفون فوق سور النهر الحجرى ، ومن فوق الرءوس كان فى وسع المرء أن يرى منصة حمراء من الخشب كان يعدها ثلاثة رجال ..

كان ثمة شخص محكوم عليه بالاعدام سوف ينفذ فيه الحكم في نفس اليوم الذى كانوا يعدون فيه الالة .

واشحت بوجهى قبل ان ارى ، وفى تلك اللحظة سمعت امراة كانت تقف الى جوار العربة تقول لصبى : « عجبا ! انظر ! ان السكين لا تجيد القطع وسوف « يشحمون » المجرى حالا بقطعة من الشمع » .

ومن المحتمل اليوم أنهم يفعلون ذلك الآن ، فقد دقت الساعة الحادية عشرة منذ لحظة ، ولاشك فى انهم « يشحمون » المجرى الآن .

آه ! فى هذه المرة أيها التعس لن تستطيع أن تشيح بوجهك !

آه ! العفو العفو !

قد يصدر عنى العفو ، فالملك ليس غاضبا على . فليذهبوا اذن لاحضار محام . الى بالمحامى ، وبسرعة ! انى أقبل الاشغال الشاقة عن طيب خاطر ، والتجديف على السفن ، أقبل الاشغال الشاقة لمدة خمس سنوات أو عشرين سنة ، بل مدى الحياة ، واقبل معها كى كتفى بالحديد الاحمر المحمى فى النار كما يشاءون .. ولكن، ليعتقوا رقبتى فحسب !

ان المحكوم عليه بالاشغال الشاقة لا يزال يمشى ، ويروح ويغدو . انه يرى الشمس !

هـــذا القســـيس

وجاء القسيس الواعظ

كان أبيض الشعر ، لطيف الشكل للغاية ، تبدو على ملامح وجهه علامات الطيبة والاحترام . كان في الواقع رجلا ممتازا كريما ، فقد رأيته في هذا الصـــباح يفرغ مافي جيبه في أيدي السجناء ، فلماذا لا يوجد في صوته ما يؤثر أو يدل على التأثر ؟ كيف يتفق أنه لم يقل لي بعد شيئا يؤثر في تفكيري أو يمس قلبي ؟

لقد كنت تائها في هذا الصباح حتى أنني لم أكـــد أسمع ماقاله لي ، ومع ذلك فقد بدت لي كلماته عديمة النفع ، وبقيت غير متأثر بها . انها كانت تنزلق من فمــه كما ينزلق هذا المطر البارد على هذا الزجاج المثلج .

ومع ذلك فقد أراحني مرأى الرجل بمجرد أن عاد الى جواري ، فهو الذي لا يزال بالنسبة الى الانسان الوحيد بين هؤلاء الرجال . لقد قلت هذا في نفسي وقد شعرت بظمأ شديد الى سماع أية كلمة طيبة مواسية .

وكنا جالسين هو على المقعد ، وأنا على السرير ، فقال لي :

ـ يابنى ..

واحسست فى تلك اللحظة بأن كلمته هذه قد فتحت قلبى المغلق ، واستمر القسيس فى حديثه قائلا : « أتؤمن بالله يابنى ؟ » .

ـ نعم يا ابى .

ـ وهل تؤمن بالكنيسة الكاثوليكية البابوية الرومانية؟

ـ نعم فى كثير من السرور .

وهنا استطرد الرجل يقول :

ـ يبدو عليك انك متشكك يابنى .

ثم اخذ يتكلم فأطال الحديث ، وقال كلاما كثيرا . ولما ظن أخيرا انه قد انتهى من حديثه ، نهض ونظر الى لأول مرة منذ شرع يتكلم ثم سألنى قائلا :

ـ حسنا ؟

فأكدت له انى قد استمعت اليه ، فى شغف أولا ، ثم فى انتباه ثانيا ، ثم فى اخلاص ثالثا .

ثم نهضت بدورى وأنا أجيبه قائلا :

ـ سيدى .. أرجوك أن تدعنى وحدى .

ـ ومتى اعود ؟

ـ سوف اخبرك فى الوقت المناسب .

فخرج الرجل عندئذ دون أن يبدو عليه اى أثر للغضب، غير انه كان يهز راسه كما لو كان يقول فى نفسه : « انه غير مؤمن ! »

كلا .. فمهما انحدرت الى أسفل الدرك فأنا لست

كذلك ، والله شهيد على أنى أؤمن به . ولكن ماذا قال لى هذا الشيخ ؟ انه لم يقل شيئا أحس به ، أو ألمس حنانه على أو يبكينى .

انه لم ينتزع من روحى شيئا ولم يخرج من قلبه شيء يصل الى قلبى ، شيء يصدر من القلب الى القلب ، بل على العكس ، لقد حدثنى عن أشياء أراها غامضة سطحية من الممكن ان تنطبق على كل شيء وعلى كل انسان ، عن أشياء هى أدنى الى البلاغة منها الى التعمق ، وسطحية فى حين أن الحاجة كانت ماسة الى البساطة . كان حديثه ضربا من الوعظ الوجدانى والتمجيد الدينى ، تتخلله من آن لآخر عبارة لاتينية ، أو نص للقديس « أوجستان » أو للقديس « جريجوار » لست أدرى ايهما ! ثم انه كان يبدو عليه انه يعيد تلاوة درس قد تلاه من قبل عشرين مرة ، أو انه يراجع موضوعا يستخلصه من ذاكرته لكثرة معرفته به ، فلا تعبير فى نظرة عينيه ، ولا حرارة فى نبرات صوته ، ولا حركة معبرة من يديه .

وكيف يمكن ان يكون الامر على خلاف ذلك ؟ أو ليس هذا القسيس هو الواعظ الرسمى للسجن ؟ ان عمله ينحصر فى أن يواسى ويعظ ، وهو يعيش من عمله هذا . ان السجناء المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ، ومرضى السجن ، هم الذين يتبعونه ، وهو الذى يجعلهم يعترفون وهو الذى يساعدهم ، لان هذه هى وظيفته التى يؤدبها لقد هرم هذا الرجل وهو يرافق الاخرين الى الموت والف

منذ زمن بعيد ماتقشعر له الابدان أن شعره الابيض لم يعد يقف فوق راسه ، فاللیمان والمشنقة شيئان يراهما فی كل يوم حتى أصبح لا يتاثر كثيرا لمرآهما وقد تكون لديه كراسة يخصص صفحة منها للمحكوم عليهم بالاشـــغال الشاقة ، واخرى للمحكوم عليهم بالاعدام . انهم يخطرونه فی الليلة السابقة بانه سيكون لديه شخص ليواسيه فی وقت كذا ، فيسألهم من اى نوع هو : أأشغال شاقة ام « اعدام » ؟ . . ثم يراجع الرجل صفحته ويحضر درسه، وهكذا يحدث أن هؤلاء الذين يذهبون الى ليمـــــــان « طولون » وأولئك الذين يذهبون الى ساحة الاعدام ، يصبحون جميعا لديه أفكارا مطروقة ، كما يصبح هـو عندهم فكرة مطروقة كذلك .

آه ! فليذهبوا اذن وليحضروا لی بدلا من ذلك واعظا شابا أو قسيسا شيخا كيفما اتفق من أول « ابرشية » تصادفهم ، ولينتزعوه من جلسته وهو الى جوار ناره يقرأ كتابه وليقولوا له : « هناك رجل سيموت حالا ، ويجب أن تكون انت من تواسيه ، يجب أن تكون الى جانبه حين يوثقون يديه ، وحين يقصون شعره وأن تركب معه فی العربة ومعك صليبك كی تحجب عنه منظر الجلاد ، وأن تشاطره وعورة الطريق حتى يبلغ ساحة الاعدام ؛ وأن تجتاز معه هذا الجمع الغفير المروع شارب الدماء ، وأن تقبله وهو يرقى الى المقصلة ، وأن تظل واقفا هنـاك حتى يفصل راسه عن جسده ، ويصبح راسه هنـــا وجسمه هناك .

فليحضروا الى اذن هذا القسيس وهو يرتجف ، وجسده بأسره يرتعد من قمة رأسه الى أخمص قدمه ، وليلقوا بي بين ذراعيه وعلى ركبتيه . لسوف يبكى عندئذ ولسوف ابكى معه ، سوف يكون فصيحا بليغا ، فاشعر بالمواساة وأسكب مافي قلبي في قلبه ، وسوف يمسك على زمام نفسى وتنتقل الى قوة ايمانه .

ولكن .. من هو هذا الشيخ الطيب ، أين هو مني واين انا منه ؟ انني انسان شقي ، وظل من الظلال التى طالما راى كثيرا منها ، وواحد آخر يضيفه الى عدد أولئك الذين نفذ فيهم حكم الاعدام !

وقد اكون مخطئا بابعاده عني على هذا النحو ، فهو الرجل الصالح وانا الرجل الطالح ، ولكن الذنب ليس ذنبي للأسف ! وانما مرد ذلك لارائي كانسان محكوم عليه بالموت ، فالاراء كثيرا ما تفسد كل شيء وتجعله يذبل ! .

لقد احضروا الى طعاما منذ لحظة . لقد حسبوا انني لابد أن أكون في حاجة اليه . هاهي ذي مائدة رقيقة شهية ، عليها دجاجة فيما يبدو ، والوان اخرى كذلك .. حسنا ! لقد حاولت أن آكل ، ولكن الطعام سقط من فمي منذ أول لقمة تناولتها ، وقد بدا لي كريها مر المذاق !

حضر منذ لحظة رجل قبعته فوق راسه (١) ، فالقى على نظرة عابرة ، ثم نصب سلما من الخشب واخذ يقيس أحجار الجدار من أسفل الى أعلى ، وهو يتكلم

(١) تقضى التقاليد الغربية بأن يرفع المرء القبعة عن راسه عندما يطل على قوم أو يحيي شخصا ما .

بصوت مرتفع للغاية ، ليقول تارة : « انه لكذلك » وليصيح تارة أخرى : « كلا ، ليس كذلك »

وسألت الحارس عمن يكون هذا الرجل ، فقال لى أنه يبدو أنه يعمل كمساعد مهندس فى السجن .

ومن ناحية أخرى ، فقد ثار حب الاستطلاع فى نفس هذا الموظف من ناحيتى ، فقد تبادل كلمات . كلها تلميح مع حامل مفاتيح السجن الذى كان فى رفقته ، ثم أنعم النظر فى لحظة ، وهو يهز رأسه فى غيرمبالاة ، واستأنف حديثه وهو يتابع قياس أبعاد الجدار بنفس اللهجة المرتفعة التى كان يتكلم بها من قبل .

وما أن فرغ الرجل من عمله حتى اقترب منى وهو يقول فى صوت جهورى : « يا صديقى العزيز .. سوف يكون هذا السجن بعد ستة أشهر أفضل من هذا بكثير » .

وكانت الحركة التى أتى بها وهو يقول ذلك كأنها تقول : « ولكنك للأسف لن تستمتع بهذا التحسين ! »

كان الرجل يبتسم تقريبا ، فخيل الى وقتئذ أننى كنت أرى اللحظة التى كان يوشك فيها أن يسخر منى برفق كما يمزح الناس مع عروس شابة فى ليلة الزفاف .

وقد تكفل الجندى الذى كان فى حراستى بالرد عليه، وكان حارسا عجوزا قد ابيض شعر رأسه وهو فى حراسة السجناء ، فقال له : « سيدى لا يرفع المرء صوته هكذا فى حجرة ميت ! »

ورحل المهندس ، اما انا فبقيت هناك كحجر من الاحجار التى كان يقيس ابعادها !

وحدث لى بعد ذلك شيء يبعث على السخرية ، فقد جاءوا ليغيروا حارسى العجوز ، وأنا أنانى وغير معترف بالجميل ، فلم أصافحه حتى بلمسة يد ، وحل مكانه آخر وكان رجلا ذابل الجبين ، تشبه عيناه أعين البقر ووجهه جامد لا تعبير فيه .

ولم أكن من ناحيتى قد أعرت ذلك أى انتباه ، فقد كنت جالسا الى المنضدة وظهرى الى الباب ، وأنا أحاول أن أرطب بيدى جبينى الملتهب ، وكانت خواطرى تثور فى نفسى .

وأحسست فجأة بضربة خفيفة على كتفى أدرت لها رأسى . كان هذا جندى الحراسة الجديد الذى كنت معه وحدى .

وهذه — تقريبا — هى الطريقة التى وجه بها الحديث الى :

قال لى الرجل :

— هل انت طيب القلب ايها المجرم ؟

— كلا !

وبدا لى أن سرعة اجابتى قد صدمته ، ومع ذلك فقد عاود حديثه قائلا فى تردد :

— ان المرء لا يكون مؤذيا لمجرد الرغبة فى الايذاء .

— ولم لا ؟ اذا لم يكن لديك سوى هذا الكلام فاتركنى وشأنى . ما الذى ترمى اليه ؟

— عفوا أيها المجرم ، لدى كلمتان ، كلمتان فحسب ، أريد أن أقولهما لك : اذا كنت تستطيع أن تسعد رجلا مسكينا دون أن يكلفك ذلك شيئا فهل تفعل ؟

فأجبته قائلا وانا أهز كتفي .

ـ هل انت قادم ياهذا من مستشفى المجانين ؟ انك تختار اناء غريبا لتستخرج منه السعادة ! انا ؟ .. انا اسعد شخصا ؟

فخفض الجندى من صوته وبدا عليه كأنه يخفى فى نفسه سرا ـ وان كان ذلك لايتفق مع وجهه الذى ينطق بالغباء ـ وهو يقول لى :

ـ نعم ايها المجرم .. نعم ، السعادة ، والثروة ! ان هذا كله سوف يأتينى منك . هذا هو مافى الامر . أنا جندى مسكين ، والخدمة ثقيلة ، واجرى ضئيل ، ولى جواد يخربنى ! غير اننى أقامر فى أوراق « اليانصيب » كى أوازن حياتى . ان المرء تلزمه صناعة ، ولا ينقصنى حتى الان كى اربح فى « اليانصيب » ، الا أن أحصل على الارقام الجيدة ، وأنا دائب البحث عنها فى كل مكان . انى ابحث عن أرقام مضمونة ولكنى اقع دائما على ارقـــام تجاورها ، أقامر على الرقم ٧٦ مثلا فيكسب الرقم ٧٧ ، ومهما اصطنعت من فراسة فانى لا أهتدى الى الرقـم الرابح .. اصبر قليلا من فضلك فقد أوشكت على الانتهاء ـ ولكن هذه فرصة طيبة بالنسبة الى ، اذ يبدو لى ـ عفوا أيها المجرم ـ انك ستعدم اليوم ، ومن المؤكد أن الاموات الذين تزهق أرواحهم على هذا النحو يرون أرقام « اليانصيب » الرابحة مقدما . عدنى أن تعود مساء غد ـ ولن يضيرك هذا فى شىء ـ لتعطينى ثلاثة ارقام ، ثلاثة ارقام رابحة اليس كذلك ؟ انى لا أخاف الاشباح فـــكن

مطمئنا ، واليك عنواني : « ثكنات بوبانكور ، سلم رقم ١ ، عنبر رقم ٢٦ في نهاية الدهليز » وسوف تتعرف على في غير عناء أليس كذلك ؟ ويمكنك أن تحضر حتى في هذا المساء ان كان هذا يروق لك .

وكنت شديد الرغبة في احتقار هذا الأحمق بعدم الرد عليه ، لولا أن ثار في نفسي أمل جنوني ، ففي مثل الحالة اليائسة التي كنت فيها ، يعتقد المرء أحيانا أن في وسعه أن يحطم سلسلة حديدية بشعرة .

فقلت له وأنا أمثل بقدر مايستطيع أن يمثل انسان يوشك أن يموت :

ــ اصغ الى .. انني أستطيع حقا أن أجعلك أغنى من الملك ، ان أجعلك تربح الملايين ، ولكن بشرط .

ففتح الرجل عينين يطل منهما الغباء وهو يقول :

ــ ماهو ؟ ماهو ؟ سوف أفعل كل شيء لأرضائك أيها المجرم !

ــ أعدك باربعة أرقام لا بثلاثة . أستبدل ملابسك بملابسي .

فصاح الحارس وهو يفك الازرار الاولى في زيه العسكري :

ــ لو كان الأمر مقصورا على ذلك !

وكنت قد نهضت من مقعدي وأنا أرقب كل حركة من حركاته وقلبي ينتفض في صدري ، وكنت أتخيل الابواب وهي تفتح أمام زيي كحارس من حراس السجن ، وأتخيل الميدان ، والشارع ، ثم دار القضاء من وراء ظهري !

ولكن الرجل التفت الي وهو يقول في تردد : « آه

ياهذا ! لاشك فى انك لا تقصد بهذا طبعا الا أن تخرج من هنا ؟

فأدركت عندئذ أن كل شيء قد ضاع ، وبذلت مع ذلك جهدا أخيرا لا طائل تحته ، جهدا غير منطقى على الاطلاق فقلت له :

ــ انني اقصد هذا حقا ، ولكن ثراءك مضمون ..

فقاطعنى الجندى قائلا :

آه ! حسنا ! كلا ، كلا .. عجبا ! فلكى تربح ارقامى يجب أن تكون أنت ميتا !

فجلست ثانية فى صمت وقد تملكنى يأس لم أشعر بمثله قط من قبل !

أيـــام صبـــاى

أغمضت عينى ، ووضعت يدى فوقهما ، محاولا ان انسى الحاضر فى الماضى ، وبينما انا أحلم ، عـادت إلى ذكريات طفولتى وشبابى ، واحدة اثر اخرى ، عـادت هادئة وحلوة ضاحكة كأنها جزر من الزهر على حافة هذه الهوة السحيقة من الافكار السوداء الغامضة التى كانت تغلى فى راسى .

هأنذا ارى نفسى مرة اخرى طفلا وتلميذا ضـاحكا نضرا ، ألعب وأجرى وأصيح مع اخوتى فى هذا الممـر الكبير الاخضر بتلك الحديقة غير المنسقة ، حيث انقضت سنوات حياتى الاولى ، والتى كانت فى الاصـل حديقـة للراهبات ، تطل عليها تلك القبة الرمادية الضـخمة ، قبة كنيسـة « لوفال دوجراس » .

وهأنذا هناك أيضا بعد ذلك بأربع سنوات وكنت فتى يافعا عطوفا على الدوام . وكانت هناك فتاة شـابة فى الحديقة المنعزلة . كانت أسبانية صغيرة تدعى « بيبا »(1)

(1) Pepa (اسم التدليل) ، وآسمها الاصل كما ورد فى نفس الصفحة . Pepita

ذات عينين كبيرتين ، وشعر أسود طويل ، وبشرة سمراء ذهبية ، وشفتين قرمزيتين وخدين ورديين . وكـــانت هذه الاندلسية الجميلة لا تتجاوز الاربعة عشر ربيعا .

وكانت أمانا قد قالتا لنا أن نذهب لنجري معا : فجئنا للتنزه . لقد قيل لنا أن نلعب وهانحن أولاء نتبـــادل الحديث ، ونحن من سن واحدة ، ولكننا لسنا من جنس واحد (١) .

ومع ذلك ، فقد كنا ، منذ عام واحد مضى فحسب ، نلعب ونتصارع معا ، وكنت أتشاجر مع « بيبا » على أجمل تفاحة في شجرة التفاح ، وكنت أضربها من أجـل عش العصافير . انها كانت تبكي فكنت أقول لها : «حسنا فعلت ! » وكنا نذهب لنشكو معا الى أمينا اللتين كانتا تقولان بصوت مرتفع أننا كنا مخطئين ، ثم تقولان في صوت خفيض أنا كنا على حق .

هاهي ذي الآن تتكيء على ذراعي وقد غمرني الفخـر وتملكني الانفعال . اننا نسير الهوينى ، ونتحدث بصوت خافت . هاهي ذي تترك منديلها يسقط فالتقطه لها . ان أيدينا ترتعش عندما تتلامس . وهي تتحدث الى عـــن الطيور الصغيرة ، وعن النجم الذي نراه هناك ، وعـــن غروب الشمس المحمرة من وراء الشجر ، أو عن صديقاتها في مدرسة الراهبات ، أو عن ثوبها وشرائطها الحريرية اننا كنا نتكلم في أمور بريئة ولكننا كنا نحمر منها خجلا .. ان الفتاة الصغيرة قد أصبحت شابة يافعة .

وفي ذاك المساء بالذات ــ وكان مساء ليلة من ليـــالي

(١) المقصود هنا أنه ذكي وانها انثى .

الصيف ــ كنا جالسين تحت أشجار الكستناء فى نهاية الحديقة ، وبعد احدى فترات الصمت الطويلة التى كانت تتخلل نزهاتنا ، قالت لى « بيبا » : « هيا بنا نجر ! »

انني لازلت اراها وهى ترتدى ثيابها السوداء حدادا على وفاة جدتها . لقد مرت بخاطرها حينئذ فكرة من أفكار الطفولة ثم عادت « بيبا » لتصبح « بيبتا » مرة ثانية .

وقالت لى : « هيا بنا نستبق ! »

واخذت تعدو أمامى بقامتها الرشيقة ، وخصرها الدقيق ، وقدميها الصغيرتين اللتين كانتا ترفعان ثوبها الى منتصف ساقيها . وكنت اتبعها وهى تهرب أمامى ، وكان الهواء الذى يحدثه عدوها يرفع أحيانا قميصها الاسود فيتيح لى أن أرى ظهرها الاسمر النضر .

وكنت لا استطيع مغالبة نفسى ، فلحقت بها بجانب البئر القديمة المتهدمة ، وامسكت بها من حزامها بحق انتصارى عليها فى السباق ، ثم أجلستها على العشب فلم تقاومنى ، وامتثلت وهى تلهث وتضحك ، بينما كنت جادا لا أكف عن النظر الى عينيها الحالمتين من خلال أهدابها الطويلة السوداء .

وقالت لى « بيبا » : « أجلس هنا ! فالدنيا لا تزال نهارا .. اجلس ولنقرأ شيئا ، أليس معك كتاب ؟ »

وكان معى يومئذ الجزء الثانى من كتاب « رحلات سبالازانى » ، ففتحته فى صفحة ما واقتربت منها فاسندت كتفها الى كتفى ، واخذنا نقرأ نفس الصفحة بصوت

منخفض ، كل واحد منا من ناحيته ، فكانت هي تضطر الى انتظاري قبل أن أقلب الصفحة ، فقد كانت روحها أكثر استيعابا من روحي وكانت تقول لي وأنا لم أكد أنتهي من قراءة السطور الاولى من الصفحة : « هل انتهيت ؟ » .

وكان رأسانا في خلال ذلك يلتقيان ، وكان شعرنا يتشابك ، وأنفاسنا تمتزج رويدا رويدا وفجأة تلاقت شفاهنا ! .

ولما أردنا أن نتابع قراءتنا كانت النجوم تملأ السماء .. وقالت « بيبا » لوالدتها عندما عادت : « آه ! يا أماه ! آه يا أماه ! آه لو كنت تعلمين كم جرينا ! » .

أما أنا فلذت بالصمت .

وقالت لي والدتي : « انك لا تقول شيئا يابني ! يبدو انك حزين ! »

ولكني لم أكن حزينا ! .. ان الجنة كانت في قلبي ! لسوف أذكر هذه الامسية مدى حياتي !

طول حياتي !!

***

دقت الساعة منذ لحظة تعلن الواحدة . ولست أدري أية ساعة تلك التي دقت فلم أعد أسمع جيدا دقات هذه الساعة ويبدو لي أن في أذني صوتا كصوت الارغن .. انها كانت أفكاري الاخيرة تدوي في أذني :

في هذه اللحظة الحرجة بينما كنت أتأمل ذكرياتي ، وجدت جريمتي فيها بشعة للغاية للمرة الثانية ، ولكني

أتمنى كذلك أن أندم أكثر من ذى قبل . لقد كنت أكثر ندما منى الان قبل أن يصدر الحكم على ، ومنذ ذلك اليوم يبدو لى أن ليس هناك مكان فى نفسى الا لافكار الموت . ومع ذلك ، فانى راغب حقا فى أن أندم كثيرا .

وعندما حلمت دقيقة ووصلت فى حلمى الى ضـربة المقصلة التى يجب أن تضع حدا لحياتى بعد ساعات ، اجتاحتنى رجفة كان هذا شىء جديد ! يالطفولتى الجميلة! ويا لشبابى الجميل ! انهما يبدوان لى الآن كقماش موشى بالذهب واطرافه ملطخة بالدماء ، فبين ذلك العهد وبين الحاضر نهر من الدم ، دم الرجل الآخر .. ودمى أنا !

اذا قرأ الناس يوما قصتى هذه بعد كل تلك السنين من البراءة والسعادة ، فلن يصدقوا هذا العام البغيض الذى بدأ بجريمة وانتهى بالمقصلة : انه سيبدو شـيئا يشوه بهجة هذه الحياة .

ومع ذلك ، فيا أيتها القوانين البائسة ، ويا أيهـا الرجال التعساء : انى لم أكن شريرا ولا قاسيا !

آه ! أموت بعد بضع ساعات ، وأنا أفكر فى اننى كنت فى مثل هذا اليوم حرا طليقا ، وطاهرا نقيا منـذ عام واحد ؟ وفى أننى كنت أتنزه نزهات الخريف . واجول كما يروق لى واسير تحت أوراق الخمائل ؟

فى هذه اللحظة بالذات ، هنالك الى جوارى ، فى هذه المنازل التى تحيط بدار القضاء وبساحة الاعدام ، كما هو الحال كذلك فى كل مكان فى باريس ، يوجد أنـاس يروحون ويغدون ويتبادلون الحديث ويضحكون ، ويطالعون

الصحف ويفكرون في أعمالهم ، وتجار يبيعون وفتيات شابات يعددن ثوب السهرة لحفل الليلة الراقص ؛ وأمهات يلعبن مع اطفالهن !!

اذكر انى ذهبت يوما وانا صبى لرؤية ابراج كنيسة « نوتردام » وكنت قد اصبحت شاردا بسبب صعود السلم الحلزونى المظلم ، وعبور الدهليز الدقيق الذى يربط بين البرجين ، وباريس تحت قدمى ، عندما دخلت القفص المصنوع من الحجر والخشب حيث يتدلى الناقوس الكبير ومعه الجلة ، وهون يزن الفا من الكيلوجرامات .

ولقد مشيت وانا ارتجف فوق الالواح الخشبية غير المرتبطة تماما ببعضها ، وانظر من بعيد الى هذا الناقوس المعروف جيدا لاهل باريس واطفالها ، والاحظ فى رعب ان المنحنيات المغطاة بالقرميد التى تحيط بالناقوس كانت فى مستوى قدمى ، وكنت ارى فى اثناء ذلك ـ وكانى طير طائر فى الهواء ـ المارين بميدان كنيسة « نوتردام » وكأنهم النمل !

وفجاة ، دوى الناقوس الضخم فهز صوته الراعد الهواء ، وجعل البرج الثقيل يرتج ، وكانت « الارضية » الخشبية تقفز فوق العروق ، وكدت اقع على ظهرى من جراء هذاالصوت ، فترنحت بعض الشىء واوشكت ان انزلق عن الاطار المنحدر المصنوع من القرميد ، فنمت فوق الالواح الخشبية من فرط الرعب وانا احضنها بذراعى فى عنفولا اقوى على التنفس مع هذا الرنين الضخم الذى يجلجل فى اذنى ، وتحت عينى هذه الهوة السحيقة، وهذا الميدان العميق حيث كان يتقابل عدد كبير من المارة

الهادئين الآمنين الذين كنت احسدهم في تلك اللحظة على ماهم فيه .

حسنا ، انه ليبدو لى الآن أننى لازلت فى برج الناقوس الكبير بكنيسة « نوتردام » . ذلك أنى اسمع فى هذه الساعة نفس الدوى واحس بنفس الذهول ، فهناك شيء ما شبيه بدقات الاجراس يهز أعماق مخى ، ولم أعد ألمح من جولى هذه الحياة الممهدة الهادئة التى تركتها وراء ظهري ، والتى لايزال الاخرون يدرجون فى طريقها ، لم أعد ألمحها الا من بعيد ، من بعيد جدا ، ومن خلال هوة سحيقة .

***

ان مبنى المحافظة مقبض كئيب !

فسقفه الخشن المدبب ، وبرجه الصغير ذو الشكل الغريب ، ومزولته الكبيرة البيضاء ، وطبقاته ذوات الأعمدة الصغيرة ، ونوافذه التى تعد بالمئات ، ودرجات سلالمه التى تآكلت من الخطوات ، وقوسا البناء اللذان يحفان به من يمين ومن شمال ، كل هذا يجعله جاثما هناك ، كساحة الاعدام ، مظلما كئيبا تنهش الشيخوخة وجهه ، واسود جدا الى حد انه يبدو قاتما فى الشمس!

وفى الايام التى يتم فيها تنفيذ احكام الاعدام ، تقذف ابوابه جميعا رجال الشرطة ويطل كل من فى نوافذه على الشخص المحكوم عليه بالموت . وفى المساء تظل مزولته التى بينت لى الساعة مضيئة فى واجهته المظلمة

الساعة الان الواحدة والربع .

وهذا هو ما اشعر به الان :

اني أقاسي صداعا شـديدا ، وبرودة مروعة في كليتي ، وجبيني ملتهب ، وكلما وقفت أو انحنيت بدا لي أن هناك سائلا يجري في مخي فيجعله يضطرب في غـلاف جمجمتي .

انني أحس برجفة محمومة ، ومن وقت الى آخر يسقط القلم من يدي كما لو كانت تهزني صدمات كهربائية .

ان عيني ملتهبتان كما لو كنت غارقا في دخان واشـعر بألم هائل في مرفقي .

لسوف اشفى بعد انقضاء ساعتين وخمس وأربعـين دقيقة !

انهم يقولون أن المقصلة لا شيء ، وان المرء لا يتألم ، وأنها نهاية حلوة ، وان الموت بهذه الطريقة يكون مختصرا بسيطا آه ! اذن ما هذا الاحتضار الذي دام سـتة أسـابيع ؟ وما هذه الحشرجة التي دامت يوما بأكمله ؟ وماهي اذن آلام هذا اليوم الذي لن يعوض والذي يمر بسرعة بالغـة وفي بطء بالغ كذلك ؟ وماهو اذن هذا السلم من العذاب الذي ينتهي الى المشنقة ؟

وليس هذا كله ألما في الظاهر !

أو ليست هي نفس التقلصات العنيفة حين يفرغ الدم قطرة قطرة ، وحين ينطفيء الذكاء فكرة بعد فكرة ؟

ثم انهم يقولون أن المرء لا يتألم من المقصلة ، فهل هم واثقون من ذلك ؟ ومن ذا الذي قال لهم هذا الكلام ؟ وهل حدث قط أن رأسا مقطوعا وقف يقطر دما على حـافة السلة ليصيح في الجمهور قائلا : « ان هذا لا يحدث ألما! »

هل حدث ان أمواتا ماتوا بهذه الطريقة ، عادوا ليقدموا

لهم الشكر وليقولوا لهم : « ان اختراعكم هذا اختراع عظيم ، وعليكم أن تستمروا في استعماله ! انه آلة جيدة ! » .

وهل هو « روبسبيير » الذى قال هذا أو « لويس السادس عشر ! »

كلا ! لا شيء من هذا ! ان الأمر ينتهى فى أقــل من دقيقة ، بل فى أقل من ثانية ! ــ فهل وضعوا أنفســهم قط ، ولو فى الخيال ، موضع الشخص الذى يكون هناك عندما تهوى السكين الثقيلة فتعض اللحم وتقطع العروق ، وتكسر مفاصل الرقبة وعظامها ؟

ولكن ماذا ؟ .. ماذا تقولون ؟ تقولون انها نصف ساعة! وأن الالم يختصر ! .. فيا للهول !

من الغريب حقا أنى لا أكف عن التفكير فى الملك !

ومهما فعلت ومهما هززت رأسى ، فان هناك صــوتا يتردد فى أذنى ويقول لى على الدوام : « هناك فى نفس هذه المدينة ، فى نفس هذه الساعة ، ولكن فى قصــر آخر (١) ، رجل لديه كذلك حراس على كل أبوابه ، وهو شخص فريد فى نوعه بين أفراد الشعب من أمثالك مع هذا الفارق الوحيد ، وهو أنه مرتفع بقــدر ما أنت منخفض . ان حياته كلها دقيقة فدقيقة ليست الا مجدا وعظمة وسرورا ومتعة ، وكل شيء من حوله عبارة عــن حب واحترام وتبجيل . ان أكثر الاصوات ارتفــاعا لتنخفض حينما تتحدث اليه وتنحنى أمامه أكثر الجباه

---

(١) أى فى قصر آخر غير هذا القصر الذى جعلوا منه سجنا ودارا للقضاء .

تيها وفخرا ، ولا تقع عيناه الا على الحرير والذهب ،وهو يرؤس فى هذه اللحظة اجتماعا من اجتماعات الوزراء فيقره الجميع على رأيه ، أو أنه يفكر فى رحلة الصيد التى سيقوم بها غدا ، أو فى حفل هذه الليلة الراقص ، وهو على يقين من انه سيتم فى الساعة المحددة له ، ويترك للآخرين أمر تدبير ملذاته . حسنا ! ان هذا الرجل مثلك من لحم وعظم ! – ولكى تنهار المقصلة الرهيبة فى نفس اللحظة ويعاد اليك كل شيء : حياتك ، وحريتك ،وثروتك واسرتك ، يكفى منه أن يكتب بهذا القلم الحروف السبعة التى يتكون منها اسمه فى ذيل قصاصة من الورق ، أو تقابل عربته الملكية العربة التى ستحملك الى ساحة الاعدام ! – وهو رجل طيب ، وقد لا يكون راغبا فى أكثر من هذا العمل الطيب ، ولكن هذا لن يحدث !

حسنا اذن ! لنكن شجعاء مع الموت . ولنقابل هذه الفكرة الرهيبة بشجاعة ، ولنواجهها وجها لوجه . لنسأل ماهو الموت ! ولنعرف ماذا يريده منا ، ولنقلب هذه الفكرة على جميع وجوهها ، ولنقرأ الغيب ، ولننظر مقدما فى القبر .

انه ليبدو لى أننى عندما ستغمض عيناى ، سأرى ضوءا باهرا وهوة سحيقة من النور تعدو خلالها روحى الى مالا نهاية ، ويبدو لى ان السماء سوف تكون مضيئة من تلقاء نفسها ، وان النجوم ستكون فيها كأنها نقط سوداوات ! نعم ، يبدو لى أن النجوم ستبدو كأنها نقط سوداوات على قماش ذهبى اللون ، بدلا من أن تكون

كما تتراءى لاعين الاحياء ، قصاصات من ذهب على قطيفة سوداء .

أو قد تكون ويا لشقائي ـ هوة مروعة ، جدرانهـــا مبطنة بالظلمات ، أهوى فيها بلا توقف وأنا أرى أشباحا تتحرك فى الظلام !

أو اننى قد أجد نفسي بعد أن استيقظ من ضربة المقصلة فوق مساحة ما مسطحة رطبة ، وأنا أزحف فى الظلام ، وادور على نفسي مثل الراس الذى يتدحرج ، ويخيل الى أنه ستكون هناك ريح صرصر عاتية تدفعنى بلا هوادة ؛ فاصطدم هنا وهناك برءوس أخرى تتدحرج ، واننى سامر أحيانا فى طريقى بمستنقعات وجداول وأنهار بها سائل فاتر مجهول ، وأن كل شيء سيكون حالك السواد، وأن عينى حينما تتجهان فى دورانهما الى أعلى فلن تريا الا سماء مظلمة تضغط عليهما طبقاتها الكثيفة ، والا قبابا ضخمة من دخان أسود كالظلمات ، ترى فى النهاية على بعد سحيق ، وأن عينى سوف تريان كذلك شررا صغيرا أحمر يتطاير فى الظلام ، لا يلبث عندما يقترب منهما أن يتحول الى طيور من نار ، وستظل الحال على هذا النحو الى الابد .

وقد يحدث أحيانا فى مواقيت معينة أن يجتمع أولئك الذين ماتوا فى ساحة الاعدام خلال ليالى الشتاءالسوداوات فى الميدان الذى هو خاص بهم ، ولسوف يكون هـــذا الجمع جمهوراً شاحبا داميا ، ولن اتخلف عن أن أكــون بينهم ، ولن يكون هناك قمر وسوف نتحدث فى أصوات

تخافتة . ان مبنى المحافظة سوف يكون هناك بواجهتـــه العتيقة ، وسقفه الممزق ، ومزولته التي كانت لا ترحـم احدا . وسوف تكون فى الميدان مقصلة من جهنم يعـدم بها احد الشياطين جلادا ، وسوف يتم ذلك فى الساعة الرابعة صباحا ، وسوف نتجمهر بدورنا من حوله !

نعم ، قد يكون الامر كذلك . ولكن اذا عاد هؤلاء الموتى فعلى اية صورة يعودون ؟ وما الذى يحتفظون به مـن اجسامهم الناقصة المشوهة ؟ وماذا سوف يختارون ؟ هل سيكون شبح كل منهم رأسا أم جذعا ؟

وا اسفاه ! ترى ماذا يفعل الموت بارواحنا ؟ وأى شكل يدعه لها ؟ وما الذى يأخذه منها أو يعطيها اياه ؟ وأين يضع الموت الروح ؟ وهل يجعل لها فى بعض الاحيان عينـين بشريتين كى تنظرا الى الارض وتبكيا ؟

آه ! الى بقسيس ! أريد قسيسا يعرف هـــذا ، ويحدثنى عنه ! أريد قسيسا وصليبا أقبله !

رباه ! انه دائما نفس القسيس ! (١) .

***

لقد رجوته ان يتركنى فأنام ، والقيت بنفسى على السرير وكان دمى كله قد صعد فى الواقع الى رأسى ، فحملنى هذا على النوم . كانت هذه نومتى الاخيرة من هذا النوع !

ورأيت فى المنام ان الوقت كان ليلا ، وخيل الى أنى كنت فى مكتبى مع اثنين من أصدقائى أو ثلاثة ، لسـت أدرى من هم على وجه التحقيق .

---

(١) يقصد نفس الكاهن الذى كان معه منذ قليل ، وقال عنه ان كلامه فاتر لا حرارة فيه ولا تأثير له .

وكانت زوجتى نائمة مع طفلتها فى الغرفة المجاورة .

وكنا نتحدث انا واصدقائى فى صوت خفيض ، وكان ما يدور بيننا من الحديث يبعث الخوف فى انفسنا .

وفجأة ، خيل الى انى اسمع صوتا ما فى الغرف الاخريات من المسكن ! كان صوتا خافتا غريبا غير واضح!

وكان أصدقائى قد سمعوا هذا الصوت كما سمعته ، فانصتنا جميعا : كان كأنه صوت قفل يفتح خلسة ، أو مزلاج يسحب فى صوت ضئيل .

وكان ثمة شيء يثلج أطرافنا : وهو أننا كنا خائفين . وحسبنا أن لصوصا قد تسللوا الى مسكنى فى هذه الساعة المتقدمة جدا من الليل ، فقررنا أن نذهب لنرى ما هنالك . فنهضت من فوق مقعدى ، واخذت الشمعة فى يدى ، وتبعنى أصدقائى واحدا فى اثر الآخر .

واجتزنا غرفة النوم المجاورة ، وكانت زوجتى نائمة مع ابنتها ، ثم وصلنا الى غرفة الجلوس ، ولكن لم يكن هناك شيء كانت الصور مثبتة فى اطاراتها الذهبية من فوق الستائر الحمراوات ، غير أنه خيل الى أن الباب الذى بين غرفة الجلوس وبين غرفة المائدة ليس فى مكانه المألوف .

ودخلنا غرفة المائدة وطوفنا بها باحثين فاحصين ،وكنت أنا الذى يسير فى الطليعة . كان باب السلم مغلقا تماما وكذلك النوافذ . وعندما بلغت المدفأة رأيت أن صوان الملابس كان مفتوحا ، وأن بابه كان مشدودا الى زاوية الجدار ، كما لو كان المقصود هو اخفاء ذلك . فادهشنى هذا ، وأعتقدنا أن هناك شخصا ما وراء هذا الباب .

فامسكت هذا الباب بيدى كى أعيد اغلاقه ولكنه قاومنى . فعجبت وجذبته بقوة هى أكبر من سابقتها ، وفجأة استجاب الباب ، واكتشفنا خلفه امرأة عجوزا قصيرة القامة متدلية الذراعين ومغمضة العينين ، قد وقفت بلا حراك كما لو كانت ملتصقة بركن الجدار !

كان ذلك منظرا مفزعا يقف له شعر راسى عندما أفكر فيه !

وقلت سائلا هذه العجوز : « ماذا تفعلين هنا ؟ »

فلم تحر جوابا ، وعدت أسألها قائلا : « من أنت ؟ »

فلم تجبنى كذلك ولم تبد حراكا وظلت مقفلة العينين .

وعندئذ قال لى أصدقائى : « انها دون شك شريكة هؤلاء الذين تسللوا الى بيتك لاغراض شريرة ، ولابد أنهم قد فروا حين سمعونا نقترب منهم ، ولم تتمكن هى من الهرب فاختبأت هناك ! »

فسألت المرأة من جديد ، ولكنها ظلت لا تتكلم ولاتتحرك ولا تنظر ! ودفعها أحدنا فوقعت على أرض الغرفة ، وقعت كتلة واحدة ، كأنها قطعة من الخشب أو شىء جامد لا حياة فيه !

وهززناها من قدميها ، ثم أوقفها اثنان من بيننا ، وجعلاها تستند من جديد الى الجدار ، غير أنها لم تبد ما يدل على انها على قيد الحياة ! فصرخنا فى أذنها ولكنها بقيت صامتة كأنها صماء !

ونفد صبرنا مع ذلك ، وكان رعبنا ممزوجا بالغضب ، فقال لى واحد من أصدقائى : « ضع الشمعة تحت ذقنها ! »

فوضعت فتيلة الشمعة الموقدة تحت ذقنها ، وعندئذ فتحت المراة عينا واحدة ، فتحتها قليلا ، فكانت عينا خاوية لا تنظر ، مخيفة لا حياة فيها !

فابعدت الشمعة عنها وقلت لها : « آه ! اخيرا ! هلا اجبتنى ايتها الساحرة العجوز ؟ من تكونين ؟ »

وانطبقت عين المراة بحركة تلقائية فقال الاخرون :«انها تبالغ كثيرا فى هذه المرة ! اعد الشمعة مرة اخرى اذ يجب ان نحل عقدة لسانها !

فاعدت الشمعة تحت ذقن العجوز ، ففتحت عينيها فى بطء ونظرت الينا جميعا واحدا بعد الاخر ، ثم انحنت فجاة ونفخت فى الشمعة بنفس بارد ، واحسست فى نفس اللحظة بثلاث اسنان حادة تنغرس فى يدى فى الظلام !

واستيقظت عندئذ من نومى مذعورا وقد غمر جسمى عرق بارد . وكان القسيس الطيب جالسا عند اسفل سريرى يتلو بعض الصلوات .

فسالته قائلا :

ـ هل نمت طويلا ؟

فاجابنى بقوله :

ـ نمت ساعة يابنى . لقد احضروا لك ابنتك وهى هنا تنتظرك فى الحجرة المجاورة ، ولم اشا ان يوقظك احد .

فضحكت قائلا :

ـ آه ! ابنتى ؟ لياتونى بابنتى !

مـــــاری ابـــــنتی

انها نضرة وردية اللون ذات عينين كبيرتين ، انها لجميلة حقا !

لقد ألبسوها ثوبا يلائمها تماما .

اخذتها ورفعتها بين ذراعی ، ثم اجلستها على ركبتی وقبلت شعرها .

وساءلت نفسی : تری لماذا لم تحضر معها امها ؟ الآن امها مريضة ، وكذلك جدتها ؟ حسنا !

كانت تنظر الى فی دهشة بادية ، بينما اخذت اداعبها ، واحضنها ، والتهمها بقبلاتی وهی تتركنی افعل كل ذلك ، غير انها كانت بين لحظة واخری تلقی نظرة حائرة علی خادمتها ، التی كانت تبكی فی ركن الغرفة .

واستطعت اخيرا ان اتكلم فقلت لها :

ـ « ماری ! » ياصغيرتی « ماری ! »

وكنت فی تلك اللحظة اضمها فی عنف فوق صـــدری المنتفخ بالدموع الملتهبة ، فصاحت صيحة صغيرة وقالت لی :

ـ آه ! انكَ تؤلمني ياسيديَ !

« سيدى ؟! » هاهو ذا عام تقريبا قد انقضى لم ترنى خلاله هذه الطفلة المسكينة ! لقد نسيتنى ، نسيت وجهى وكلامى ولهجتى ، ثم .. من ذا الذى يستطيع أن يعرفنيَ وانا بهذه اللحية ، وفى هذه الثياب ، وفى مثل هذا الشحوب ؟ آه ! أهكذا محيت سريعا من هذه الذاكرة ، وهى الذاكرة الوحيدة التى كنت أود ان اعيش فيها ! آه! أبمثل هذه السرعة لم اعد ابا ؟ انا الذى قضى على الا اسمع قط بعد الان هذه الكلمة : كلمة « بابا » ! هذه الكلمة التى هى من لغة الاطفال ، والتى تبلغ من العذوبة حدا لا يمكن أن تبقى معه فى ذاكرة الرجال !

ومع ذلك ، فقد كنت لا اتمنى الا أن اسمع هذه الكلمة من هذا الفم مرة أخرى ، مرة واحدة فحسب .. هذا هو كل ما كنت أريده فى مقابل الاربعين سنة التى سيأخذونها من عمرى :

قلت لها وانا آخذ بيديها الصغيرتين فىَ يدى :

ـ اصغى الى يا « مارى » .. الا تعرفينني ؟

فنظرت الى بعينيها الجميلتين ثم اجابت قائلة :

ـ آه ! حسنا .. انني لا اعرفكَ !

فعدت اكرر القول :

ـ انظرى الى جيدا .. كيف لا تعرفين من انا ؟

فقالت لى :

ـ بلى ، بلى .. انكَ سيد

وا اسفاه ! هاهو ذا امرؤ لا يحب من اعماق قلبه الا مخلوقا واحدا في هذا العالم ، يحبه بكل جوارحه ، ويجده امامه ، وينظر اليه ، ويراه ويحدثه ويرد عليه .. ولكن هذا المخلوق لا يعرفه ، انني لا اريد عزاء الا منها ، فهي الانسان الوحيد الذي لا يعرف اني في حاجة الى العزاء ، لاني اوشك ان اموت !

واستأنفت حديثي معها قائلا :

ــ الك اب يا « ماري ؟ »

ــ نعم ياسيدتي .

ــ حسنا ، واين هو ؟

فرفعت الى عينين واسعتين تطل منهما الدهشة وقالت :

ــ الا تعلم الآن ؟ لقد مات ياسيدي !

وما ان قالت هذا حتى تصلبت ذراعاي على ماري نيول ما سمعته فصرخت ، وكادت تسقط مني على الارض ! بينما كنت اقول لها :

ــ مات ! اتعرفين يا « ماري » مامعنى انه مات ؟

فاجابتني قائلة :

ــ نعم ياسيدتي .. انه في الارض وفي السماء .

ثم استطردت تقول من تلقاء نفسها : « انى أصلى من اجله صباحا ومساء وانا على ركبتي ماما » .

فطبعت قبلة على جبينها وقلت لها :

ــ قولى لي صلاتك يا « ماري »

ــ لا استطيع ياسيدي . ان الصلاة شيء لا يقـال

بالنهار . تعالَ عندنا في البيت هذا المساء وانا اقرأها لك .
وكان هذا حسبي لكنني قاطعتها قائلا :
ـ « ماري » انا والدك !
ـ آه !
فعدت اقول :
ـ اتحبين ان اكون والدك ؟
فأشاحت الطفلة عني بوجهها ثم قالت :
ـ كلا .. لقد كان والدي اجمل منك كثيرا !
فأخذت اغرقها بقبلاتي ودموعي ، فحاولت ان تفلت من بين ذراعي ، وهي تصيح قـــائلة : « انك تؤلمني بلحيتك ! » .
وعندئذ اجلستها ثانية على ركبتي وانا احرسها بعيني ثم سألتها قائلا :
ـ أتعرفين القراءة يا « ماري » ؟
ـ نعم، اعرفه جيدا ، ان والدتي تجعلني اقرأ حروفا اكتبها بنفسي .
فقلت لها وانا اريها ورقة كانت تمسك بها مجعدة في احدى يديها الصغيرتين :
ـ اريني كيف .. هيا اقرئي قليلا !
فهزت رأسها الجميل وقالت :
ـ حسنا ! لست اعرف الا قراءة الحكايات .
فعدت اقول لها :
ـ استمري في المحاولة .. اريني .. اقرئي .
فنشرت الورقة واخذت تتهجى مشيرة باصابعها :

ـ ح .. كَ .. حكَ .. م .. « حكم » (١)

فانتزعت الورقة من بين يديها ، فقد كان ما تقرؤه هو نص الحكم الصادر على بالاعدام ، وكانت خادمتها قد اشترت هذه الورقة بنصف مليم ، أما أنا فقد كلفتنى غاليا !

ليست لدى كلمات استطيع بها ان اعبر عما كنت اقاسيه فى تلك اللحظة ! كان عنفى قد روعها واخافها وكانت تبكى تقريبا . وفجأة قالت لى : « أعد الى ورقتى اذن لالعب بها ! عجبا ! »

فأرجعت الطفلة الى الخادمة وانا اقول :

ـ خذيها من هنا !

ثم تهالكت على مقعدى مكتئبا يائسا شارد اللب ! يجب عليهم أن يحضروا الان فلم أعد أتمسك باى شىء اذ انقطع آخر وتر من أوتار قلبى ، وصرت مهيئا لما سيفعلونه بى على الفور !

ان القسيس رجل طيب القلب ، وكذلك الجندى الحارس ، واحسب أن كل واحد منهما قد ذرف دمعة حينما قلت للخادمة : « خذيها من هنا ! »

لقد قضى الامر الآن ، فيجب على أن أتصلب فى أعماق نفسى ، وأن أفكر بثبات فى الجلاد ، وفى العربة ، والجنود والجمهور المحتشد على الجسر ، وفى المحتشدين على رصيف نهر السين ، وفى الذين يقفون أمام النوافذ ، وفيما سوف يعد خصيصا من أجلى فى تلك الساحة ،

---

(١) Arret (حكم) : كانت هذه اول كلمة على الورقة التى بين يديها ، وكانت صورة من حكم الاعدام الصادر عليه .

ساحة الاعدام المظلمة التى يمكن أن ترصف بما هوى من الرءوس .

أحسب انه لا تزال امامى ساعة كى آلف كل ذلك .

***

ان كل هذا الشعب سوف يضحك ويصفق . وبين كل هؤلاء الرجال الاحرار الذين لا يعرفهم الجلادون ، والذين يسرعون فى مرح لمشاهدة تنفيذ حكم الاعدام ، بين كل هذه الرءوس التى ستغطى الميدان ، هناك أكثر من راس كتب عليه أن يتبع راسى ان عاجلا أو آجلا الى السلة الحمراء ، وهناك أكثر من شخص من هؤلاء الذين يأتون من أجلى سوف يأتون فى يوم من الايام من أجل أنفسهم!

فبالنسبة لهؤلاء الاشخاص المنحوسين ، هناك نقطة معينة فى ساحة الاعدام ، هى عبارة عن مكان مشئوم ومركز جاذبية وفخ منصوب ، وهم يحومون حوله ويحومون الى أن يترددوا فيه !

ابنتى الصغيرة « مارى ! » ـ لقد أعادوها لتلعب .. انها تنظر الى الجمهور من خلال نافذة العربة التى تقلها ولم تعد تفكر فى هذا « السيد ! »

قد يتاح لى كذلك بعض الوقت لاكتب لها بعض الصفحات حتى تقرأها فى يوم من الايام ، وتبكى بعد خمسة عشر عاما بدلا من اليوم .

نعم ، يجب أن تعرف « مارى » قصتى منى وان تعرف السبب فى أن الاسم الذى اتركه لها يقطر دما !

قصتي

كلمة من الناشر : لم نجد الى الآن الورقات الخاصة بهذا الفصل من الكتاب . وقد يكون المحكوم عليه بالاعدام لم يجد متسعا من الوقت لكتابتها كما ستبينه الصفحات التالية ، وكان الوقت قد ازف عندما خطرت له هذه الفكرة .

إلى ساحة الإعدام

من غرفة بدار المحافظة ! انني هنا الآن ! لقد تمت الرحلة البغيضة وهاهي ذى ساحة الاعدام ، وهاهو ذا الشعب الرهيب يضج بالصراخ تحت نافذتى وينتظرنى وهو يضحك !

وقد حاولت جهدى أن أتشجع أو أستجمع قواى ولكنى كنت أحس دائما بأن قلبى يخوننى ، وقد خاننى أكثر ، وكاد يكف عن الخفقان عندما رأيت هاتين الذراعين الحمراوين . وفى نهايتهما هذا المثلث الاسود (١) ، تطالعنى من فوق الرءوس وقد نصبت كلها لى بين مصباحين على رصيف النهر ، فطلبت أن أعترف اعترافا أخيرا ، فأحضرونى الى هنا ، وذهبوا لاستدعاء أحد وكلاء النائب العام ، وهاأنذا أنتظره وسوف أكسب بهذا بعض الوقت !

وهذا ما حدث :

دقت الساعة ثلاث دقات ، عندما جاءوا ليخطرونى بأن الوقت قد حان ، فارتجفت كما لو كنت أفكر فى شىء آخر

---

(١) ذراعا المقصلة وسكينتها .

منذ ست ساعات أو منذ ستة اسابيع ، بل منذ ستة اشهر ، لقد كان لهذا فى نفسى وقع سيىء لم أكن انتظره .

وساقونى امامهم فاجتزت ألدهاليز ونزلت السلالم ثم دفعونى بين نافذتين صغيرتين بالطابق الارضى فى غرفة ضيقة مظلمة سقفها به قباب ، ويصل اليها ضوء خافت من نور يوم معتم مطير . كان الضباب كثيفا ، وكان ثمة مقعد فى وسط الغرفة وامرونى بالجلوس فجلست .

وكان هناك ، عدا القسيس والحراس ، رجال يقفون الى جوار باب القاعة وبطول الجدران ، وكان هناك كذلك ثلاثة رجال آخرين .

كان اولهم — وهو اطولهم قامة وأكبرهم سنا — بدينا ذا وجه أحمر ، ويرتدى « ردنجوتا » وقبعة غير منتظمة الشكل لها زوايا ثلاث . لقد كان هو !

نعم ، كان هو الجلاد بعينه ، خادم المقصلة ، وكان الرجلان الاخران خادمين له شخصيا !

وما ان جلست حتى اقترب منى الرجلان الاخران من الخلف وكأنهما قطان ، وفجأة ، أحسست ببرودة الصلب تسرى فى راسى وصلصلة المقصات تدوى فى أذنى ، واخذ شعرى الذى كانوا يقصونه كيفما اتفق ، يتساقط خصلا على كتفى ، فكان الرجل البدين ذو القبعة المثلثة الاركان ينفضه فى رفق بيده الضخمة .

ومن حولى كان يدور الحديث فى صوت هامس .

وكانت تترامى الى اذنى من الخارج جلبة عظيمة كأنها رعد يتدفق مع الهواء ، فحسبت فى أول الامر انها صادرة

من النهر ، ولكنى مالبثت أن سمعت ضحكات عالية ؛ فأدركت ان تلك الجلبة كانت منبعثة من الجماهير .

وكان هناك شاب يقف الى جوار النافذة وقد أخذ يكتب بالقلم فوق حافظة أوراقه ؛ فسأل أحد الحراس قائلا :

ـ ما هذا الذى يفعلونه الان بالمحكوم عليه ؟

فأجابه الحارس بقوله :

ـ هذه زينة المحكوم عليه بالموت !

ففهمت عندئذ ان هذا سيظهر غدا فى الصحف .

وفجأة ، خلع لى أحد خادمى الجلاد سترتى ، واخذ الاخر يدى اللتين كانتا تتدليان الى جانبى وجذبهما وراء ظهرى ثم أحسست بالحبل وهو يلتف حول معصمى فى بطء . وفى نفس اللحظة كان الخادم الاول يفك ربطة عنقى لكن قميصى « الباتستا » وهو الخرقة الوحيدة التى تبقت لى مما كنت ارتديه فيما مضى ـ جعله يتردد لحظة ثم شرع الرجل فى قص « ياقته » .

فارتجفت لهذه الحيطة الرهيبة بحينما مس المقص الصلب رقبتى ، وارتعد مرفقاى فى عنف ظاهر وند عنى أنين مكتوم ارتعشت له يدا « صبى » الجلاد .

وقال لى الرجل :

ـ سامحنى يا سيدى ! هل آلمتك ؟

ان هؤلاء الجلادين ذوو شعور رقيق للغاية .

وكان صراخ الجماهير يتزايد فى الخارج .

وعرض على الرجل البدين ذو الوجه الاحمر ان اشم منديلا مشبعا بالخل ، فقلت له بأعلى صوت استطعته :

« شكرا ، هذا لا جدوى منه فانى اشعر بانى فى حـالة جيدة » .

وعندئذ انحنى أحدهم ، وقيد قدمى بحبل رفيع رقيق كان لا يتيح لى أن أخطو الا خطوات ضيقة للغاية : ثم ربطوا هذا الحبل الاخير بحبل يدى .

ثم ألقى الرجل البدين بالسترة على كتفى وربط كميها معا من أسفل ذقنى . كان كل ما كان ينبغى أن يتم هنـا قد انتهى .

وفى تلك اللحظة ، اقترب منى القسيس بصليبه وقال لى : « هيا يابنى » .

فأمسك بى خادما الجلاد من تحت ابطى فنهضـت ومشيت . كانت خطواتى خائرة منهارة ، كما لو كانت كل ساق من ساقى لها ركبتان !

وفتح الباب الخارجى على مصراعيه فى تلك اللحظة ، فاندفع نحوى فجاة وانا فى الظلام ، صياح الجمـاهير الغاضب مختلطا بالهواء البارد والضوء الابيض . ورأيت فجاة ودفعة واحدة من خلال المطر وعبر النافذة الصغيرة المعتمة آلافا مؤلفة من الرءوس رءوس الشـعب الذى تكدس بعضه الى جانب البعض فى غير نظام ، وهو يصـيح من فوق سلم المحافظة الكبير . وكان هناك الى اليمين عند عتبة الباب تماما صف من فرسان البوليس عـلى ظهور جيادهم التى لم يكن يبدو لى منها سوى صـدورها وأقدامها الامامية من خلال الباب المنخفض ، وكـانت هناك فى مواجهتى سرية من الجنود فى زى الميدان ، كمـا ظهرت الى اليسار مؤخرة عربة « كارو » كان يرتكز عليها

سلم غليظ خشن ! فكان هذا كله لوحة كئيبة تتمشى تماما مع باب السجن !

وكنت قد استطعت أن أحتفظ بشجاعتى حتى هذه اللحظة الرهيبة ، فخطوت ثلاث خطوات الى الامام ، وما كدت ابدو عند باب القاعة ، حتى علا صياح الجماهير قائلا : « هذا هو ! هذا هو ! هاهو ذا يخرج أخيرا ! »وكان أقربهم الى مكانى يصفقون ، ومهما أحب الشعب ملكا فلن يحتفى به مثل هذه الحفاوة .

وكانت العربة عربة « كارو » عادية يجرها جواد هزيل وكان سائقها يرتدى حلة زرقاء بها رسوم حمراء اللون شبيهة بثياب تجار الخضر حول سجن « بيستر » .

وصعد الرجل البدين ذو القبعة المثلثة الاركان الى العربة اولا ، وكان الصبية المتعلقون بالسور الحديدى يصيحون لمرآه قائلين : « أهلا وسهلا بالسيد شمشون » ثم تبعه الى العربة احد خادميه ، فعاد الصبية يصيحون من جديد : « مرحى ياماردى ! » وجلس الرجلان على مقعد العربة الامامى .

ثم حان دورى ، فصعدت الى العربة فى مظهر ثابت بعض الشىء . وفى تلك اللحظة قالت امرأة كانت تقف الى جوار الجنود : « انه على مايرام ! »

ومنحنى هذا الثناء المروع شيئا من الشجاعة ، وجاء القسيس ليجلس الى جوارى وكانوا قد اجلسونى على المقعد الخلفى وظهرى الى جواد العربة ، فارتجف بدنى لهذه اللفتة الاخيرة ! انهم يبدون انسانية فى مثل هذه الامور .

وأردت أن أنظر حولى . كان أمامى جنود ومن خلفى جنود ، ثم الجماهير .. نعم ، جماهير ثم جماهير ثم جماهير : لقد كان هناك بحر من الرءوس يغمر الميدان !

وكانت كوكبة من فرسان البوليس فى انتظارى عند باب سور المحافظة الحديدى . وأصدر الضابط أوامره ، فتحركت العربة مع الموكب كما لو كان صياح الجماهير قد دفعها الى الامام .

واجتزنا الباب الحديدى ، وما كادت العربة تنعطف فى اتجاه قنطرة « أو شانج » حتى انفجرت الضوضاء فى الميدان ، من الارض الى أسطح المنازل ، ورددتها القناطر وأرصفة نهر « السين » فى دوى كأنه زلزال يهز الارض هزا فى غير هوادة ولا رحمة !

وفى تلك اللحظة ، انضم البوليس ، الذى كان ينتظرنى الى قوة الحراسة .

وكانت آلاف الافواه تصيح معا ، تماما كما يحدث عند مرور الملك : اخلعوا قبعاتكم ! اخلعوا قبعاتكم ! » (١)

فضحكت أنا كذلك ضحكة كئيبة وقلت للقسيس : « هم القبعات .. وأنا الراس ! » (٢) .

واخذ الموكب يسير خطوة خطوة . وكان رصيف الزهور تنبعث منه روائح زكية ، وكان اليوم يوم السوق ، فتركت بائعات الزهور زهورهن من أجلى أنا .

وهناك فى مواجهتنا ، قبل البرج المربع الجاثم فى ركن دار المحافظة بقليل ، حانات كان الطابق الارضى منها يعج بالمتفرجين الذين ينعمون بأماكنهم الجميلة ، وكان أكثرهم

(١) لتحية الذاهب الى الموت عند مروره .
(٢) أى هم يخلعون قبعاتهم وانا سيخلع راسى !

من النساء ! لابد أن يكون هذا اليوم يوما طيبا بالنسبة لاصحاب الحانات ! فقد كانوا يؤجرون المناضد والمقاعد والمنصات والعربات « الكارو » ، وكان كل شيء مزدحما بالمتفرجين ، وكان بائعو الدماء البشرية يصيحون بملء أفواههم قائلين : « من ذا الذى يريد مكانا ؟ »

وتملكنى السخط على هذا الشعب ، وودت لو أصرخ فى الناس قائلا : « من منكم يريد مكانى ؟ »

ومع ذلك فقد أخذت العربة تتقدم ، وفى كل خطوة كانت تخطوها كان الجمهور ينفض من ورائها وكنت أرى بعينى الشاردتين أفواجا من الناس ، وهى تسارع الى التجمع فى مواضع أخرى أبعد الى الامام فى الطريق الذى يمضى فيه موكبى .

وحينما بدأنا نمر فوق قنطرة « أوشانج » ألقيت بطريق الصدفة نظرة ذات اليمين الى الوراء ، فاستقرت عيناى عند رصيف نهر السين من الضفة المقابلة على برج اسود منعزل قائم من وراء أسطح المنازل ، وكان هذا البرج مزدانا بالنقوش ، وكنت أرى فى قمته تمثالين لوحشين من الحجر فى جلسة جانبية . ولست أدرى ماذا دفعنى الى سؤال القسيس عن أمر هذا البرج .

فأجابنى الجلاد بقوله : « انه القديس جاك لابوشيرى»

ولست أدرى كيف كان لايفوتنى شيء مما كان يدور من حولى رغم الضباب ورغم المطر الدقيق الابيض الذى كان يملأ الهواء وكأنه خيوط نسيج العنكبوت ، وكانت كل واحدة من هذه التفاصيل تضيف الى نفسى عذابا فوق عذاب . ولست أجد من الكلمات ما استطيع به ان اعبر عما أشعر به من انفعالات .

وفي نحو منتصف قنطرة « أوشانج » العـريضة جدا والمزدحمة للغاية ، والتي كنا نسير فوقهـا فى صـعوبة بالغة ؛ تملكنى رعب عظيم وخشيت أن أغيب عن الوعى . ياله من غرور أخير ! فحرصت عندئذ على أن أعمـل على تشريد ذهنى حتى أصير كالاعمى الاصم فلا أرى شـيئا ولا أسمع شيئا عدا القسيس الذى كنت أسمع كلماته فى جهد جهيد تتخللها ضجة الشعب .

فتناولت الصليب وقبلته ثم قلت : « رحماك ياالهى !» وحاولت أن أفنى نفسى فى هذه الفكرة ، ولكن كل «مطب» تضطرب فيه العربة الصلبة كان يهزنى هزا عنيفا ، ثم احسست فجأة ببرودة شديدة ، اذ كان المطر قد نفـذ من ثيابى وغمر جلد رأسى من خلال شعرى الذى قصوه قصيرا .

وسألنى القسيس قائلا :

ـ أترتجف من البرد يابنى ؟

فأجبته بقولى :

ـ نعم .

وكنت للاسف لا ارتجف من البرد وحده !

وعند ناصية القنطرة أبدى بعض النساء عطفهن على لانى شاب حديث السن . ثم مضين قدما على طـــول الرصيف المشئوم ، فبدات لا ارى شيئا ولا أسمع شيئا ! آه من كل هذه الاصوات وكل تلك الرءوس التي تطل من النوافذ والابواب وتحتشد أمام الحوانيت وفوق أعمـدة النور ، آه من كل هؤلاء المتفرجين النهمين القساة ، هذا

الجمهور الذى يعرفنى كله ولا أعرف شخصا واحداً منه ، هذا الطريق المرصوف والمسور بالوجوه البشرية !! انى كنت ثملا مذهولا متبلد الذهن ! ان كل هذه الانظار التى تتطلع اليك شىء لا يمكن احتماله !

لقد كنت أترنح اذن فوق المقعد ولم أعد القى بالا الى شىء ، حتى ولا الى القسيس أو الصليب . وفى غمرة الضجيج الذى يحيط بى ، صرت لا أميز صيحات الشفقة من صيحات السرور ، أو افرق بين الانات والضحكات ، ولا بين الاصوات والصخب ، فكل ذلك كان ضجيجا يدوى فى رأسى كما يدوى الصدى فى آلة من نحاس !

وكانت عيناى تقرآن لافتات الحوانيت بطريقة آلية ، وتملكنى مرة فضول عجيب لان أدير رأسى لانظر الى اى مكان كنت أسير . كان هذا تحديا أخيرا من العقل ، غير أن جسمى لم يستجب لهذا ولبث عنقى مشلولاً كأنه مات مقدما !

لقد لمحت فحسب ، عن يسارى من الجانب بعيدا عن النهر ، برج كنيسة « نوتردام » الذى اذا نظر اليه من هذا الموضع ، فانه يحجب البرج الآخر ، هذا البرج الذى كان العلم مرفوعا عليه ، وكان به جمع غفير كان المفروض انه يرى موكبى فى وضوح .

وواصلت العربة المسير فاخذت تتقدم وتتقدم والحوانيت تمر ، واللافتات تتتابع مكتوبة أو مرسومة او مطلية بالذهب وكان الجمهور يضحك ويضرب الوحل بالاقدام ، أما أنا فكنت اترك العنان لنفسى كما يترك الناس عنان انفسهم للأحلام .

وفجأة ، انقطعت سلسلة الحوانيت التى كانت تشغل عينى عند ناصية ميدان وأصبح صياح الجماهير أشد قوة وعمقا وانتشارا ، وصار أكثر مرحا كذلك ، وتوقفت العربة عن المسير بغتة فكدت أنكفىء على وجهى فوق « أرضيتها » الخشبية ، فسندنى القسيس وهو يتمتم قائلا « تشجع يابنى ! » .

وجاءوا عندئذ بسلم عند مؤخرة العربة فقدم الى القسيس ذراعه فنزلت وخطوت خطوة واحدة ثم التفت الى ما ورائى لاخطو بعدها خطوة أخرى ، ولكنى لم أستطع ، اذ كنت قد رايت شيئا رهيبا بين عمودين من أعمدة النور فوق الرصيف .

آه ! لقد كانت هى الحقيقة !

فتوقفت كما لو كنت قد ترنحت من أثر الصدمة ، ثم صحت قائلا فى صوت مخنوق : « لدى اعتراف أخير أريد أن أفضى به ! » ولكنهم صعدوا بى الى هذا المكان .

وطلبت ان يتركونى كى أدون ارادتى الاخيرة ، ففكوا وثاق يدى ، ولكن الحبل هنا الى جوارى على أهبة الاستعداد ، وبقيته ملفوفة على قدمى !

الرجـــاء الأخـــير

لقد حضر منذ لحظة احد القضاة أو مأمور أو رجل من رجال القضاء لست أدرى أيهم . فطلبت اليه العفو عنى وانا اضم يدى وازحف على ركبتى . فأجابنى الرجل قائلا وهو يبتسم ابتسامة مشئومة : « هل هذا هو كل ماتريد ان تقوله لى ؟ »

فعدت اكرر قولى : « العفو عنى ! العفو عنى ! أو خمس دقائق فحسب .. على سبيل الرحمة ! »

من يدرى ؟ فقد يصل امر العفو ! ومن الشناعة حقا ان أموت هكذا وانا فى مثل هذه السن ! وكثيرا مارأينا أمر العفو يأتى فى اللحظة الاخيرة وعمن يعفون ياسيدى اذا هم لم يعفوا عنى ؟

يا لهذا الجلاد البغيض ! لقد دنا من القاضى ليقول له ان تنفيذ الحكم يجب ان يتم فى ساعة محددة ، وأن هذه الساعة تقترب ، وانه كان مسئولا ، وليقول له فوق هذا أن السماء كانت تمطر ، وان ذلك كان خليقا بأن يجعل المقصلة تصدأ !

فصحت قائلا : « آه ! دقيقة اخرى على سبيل الرحمة! دقيقة واحدة انتظر فيها وصول العفو ! والا فانى سوف ادافع عن نفسى ! سوف اعض ! » .

فانصرف القاضي والجلاد ، وبقيت وحدى ! وحدى مع جنديين .

اوه ! يا للشعب الرهيب بصياحه الذى يشبه عـواء الضباع ! من يدرى ما اذا كنت افلت منه ؟ من يعلم ما اذا كنت اعتق ؟ او أن يصدر عفو عنى ؟ .. من المحال الا يصدر العفو عنى !

آه ! يا للتعساء ! يبدو لى أنهم يصعدون السلم !..

الساعة الان الرابعة !

مهزلة بمناسبة مأساة

بقلم : فيكتور هيجو

الشخصيات

مدام دى بلانفال
الفارس
ارجاست
شاعر حزين
فيلسوف
سيد بدين
سيد نحيل
سيدات
خادم

المكان : فى الصالون

شاعر حزين يقرأ هذه الابيات من شعره :
وفى اليوم التالى ، كانت خطوات تعبر الغابة
وكان هناك كلب ينبح ويهيم على طول مجرى النهر
ولما حضرت الفتاة وهى تبكى
وعادت لتجلس وقلبها مملوء بالهواجس

على البرج القديم جداً فى القصر العتيق
سمعت « ايزور » الحزينة انين الامواج
ولكنها لم تعد تسمع الربابة بعد ذلك
ربابة القصصى « الشاعر » اللطيف !

كل المستمعين ــ « برافو » ! .. لطيف ! .. مدهش !
« ويصفقون فى نفس الوقت »

مدام دى بلانفال ــ هناك فى نهاية هذه القصيدة شيء غامض لا يمكن تعريفه ، شيء يسيل الدمع من العيون .

الشاعر الحزين ــ « فى تواضع » : ان الكارثة مقنعة ؟

الفارس ــ « وهو يهز رأسه » : ان كلمتى ربابة وعازف ربابة : رومانتيكيتان !

الشاعر الحزين ــ نعم ياسيدى ، ولكنها رومانتيكية معقولة ، رومانتيكية بمعنى الكلمة ــ ماذا تريد اذن ؟ يجب علينا ان نتساهل بعض الشيء .

ــ نتساهل .. نتساهل ! اننا بهذه الطريقة نفقد الذوق الفنى .. اننى لاعطى بامتنان كل الاشعار الرومانتيكية فى مقابل هذا الرباعى !

فى بلاد « باند » و « سيتير » .
اخطر « جانتيى برنار »
بأن فن الحب يجب فى يوم السبت
ان يتعشى عند فن الاعجاب .

هذا هو الشعر بمعنى الكلمة ! فن الحب الذى يتناول عشاءه يوم السبت عند فن الاعجاب ! حسنا ، حسنا ! ولكنه اليوم عبارة عن ربابة وعازف ربابة . لم يعد ثمة

شعر به تورية واستعارة .. آه ! لو كنت شاعرا لكتبت أشعارا مملوءة بالاستعارات .. ولكني لست شاعرا .. انا ..

الشاعر الحزين ــ ومع ذلك ، فالاشعار الحزينة والعاطفية ..

الفارس ــ اننا نريد ياسيدى أشعارا بها استعارة .. « ثم بصوت هامس الى مدام دى بلانفال » : ثم انه استعمل كلمة غير فرنسية !

شخص ما ــ « مخاطبا الشاعر الحزين » : لدى ملاحظة ياسيدى .. انك تقول : « القصر العتيق » ، فلماذا لا تقول : « القصر القوطى ؟ »

الشاعر الحزين ــ ان كلمة «قوطى» لاتقال فيالاشعار.

شخص ما ــ آه ! هذا أمر مختلف .

الشاعر الحزين ــ « متابعا حديثه » : أفهمنى تماما ياسيدى .. يجب أن نحدد أهدافنا ، وانا لست من هؤلاء الذين يريدون اشاعة الفوضى والاضطراب فى الشعر الفرنسى والعودة به الى عصر مدرسة « رونسار » (١) ومدرسة « بريبوف » اننى رومانتيكى ولكنى معتدل ؛ والامر عندى تماما كالانفعالات ، فانا أريدها حلوة رقيقة ، وحزينة حالمة ، ولكنى لا اريد ابدا دما وبشاعة . يجب تغطية الكوارث ، وانى لاعرف أن هناك اناسا مجانين يشتط خيالهم ويهرف ، وهم .. عجبا ! هل قرأتن سيداتى الرواية الجديدة ؟

السيدات ــ اية رواية ؟

(١) شاعر رومانتيكى من شعراء القرن السادس عشر .

الشاعر الحزين ــ الرواية التي عنوانها : «آخريوم»..

سيد بدين ــ كفى ياسيدى ! فأنا اعرف ما تريد ان تقول .. ان العنوان وحده يرهق اعصابى !

مدام دى بلانفال ــ وانا كذلك .. انه كتاب فظيع ، وهو عندى هنا .

السيدات ــ أرينا اياه .. أرينا أياه !

« يمر الكتاب من يد الى اخرى »

شخص ما ــ « يقرأ » : آخر يوم فى حياة شخص ...

السيد البدين ــ رحماك ياسيدتى !

مدام دى بلانفال ــ حقا انه كتاب شنيع يسبب الكابوس ، ويجلب لقارئه المرض .

سيدة ــ « بصوت منخفض » : يجب ان أقرأ هذا الكتاب .

السيد البدين ــ من واجبنا أن نعترف بأن الاخلاق تتدهور من يوم الى يوم . يا الهى ! يالها من فكرة بشعة !. اوليس تحليل كل الالام البدنية ، وكافة أنواع العذاب النفسى التى يقاسيها رجل محكوم عليه بالاعدام يوم تنفيذ الحكم فيه ، واحدة بعد أخرى ، والتغلغل فيها ،والتنقيب عن جذورها وملابساتها .. او ليس هذا كله شيئا شنيعا ؟ أتفهمن سيداتى أنه قد وجد بالفعل كاتب تبنى هذه الفكرة وان ثمة جمهورا يقرأ لهذا الكاتب ؟

الفارس ــ هذا فى الواقع عمل ينطوى على أكبر قدر من الوقاحة !

مدام دى بلانفال ــ ومن هو مؤلفه ؟

السيد البدين ـ لم يكن اسم المؤلف مكتوبا على الطبعة الاولى .

الشاعر الحزين ـ انه هو بعينه الذى سبق له ان كتب روايتين أخريين .. اقسم بشرفى أنى نسيت عنوانيهما ! ان الرواية الاولى تبدأ فى المشرحة وتنتهى فى ساحة الاعدام ، وفى كل فصل من فصولها تجدون غولا ياكل طفلا .

السيد البدين ـ وهل قرات هذا ياسيدى ؟

الشاعر الحزين ـ نعم ياسيدى ، وحوادث هذه الرواية تقع فى « ايسلاندة » ..

السيد البدين ـ فى ايسلاندة ؟ ان هذا لشىء مخيف !

الشاعر الحزين ـ لقد كتب عدا هذا أشعارا غنائية وألوانا عدة من القصائد لست أعرفها ، ولكن فيها الوحوش ذات الاجساد الزرقاء !

الفارس ـ « ضاحكا » : يا الهى ! لابد أن يكون هذا بيتا عنيفا من الشعر .

الشاعر الحزين ـ لقد نشر كذلك دراما مسرحية ـ انهم يسمون هذا دراما ـ ولقد جاء بها هذا البيت الجميل من الشعر :

غدا ، الخامس والعشرون من يونيو سنة الف وستمائة وسبع وخمسين ..

شخص ما ـ ياله من بيت من الشعر !

الشاعر الحزين ـ ان هذا يمكننا كتابته بالارقام .. انظرن سيداتى :

غدا ٢٥ يونيو ١٦٥٧
« يضحك ويضحك معه الآخرون »
الفارس ــ لقد أصبح الشعر الآن شيئا « خاصا »
السيد البدين ــ آه ! ان هذا الرجل لا يعــرف كيف يقرض الشعر فما هو اسمه ؟
الشاعر الحزين ــ انه اسم يصعب حفظه والنطق به .. وبه المقطع : «جو» .. شيء يشبه «فيزيجو» على ما أذكر ، وعلى كل حال فان فيه شيئا من « الاوستروجو » (١) .

يضحك

مدام دى بلانفال ــ انه رجل بغيض !
السيد البدين ــ بل رجل شنيع !
سيدة شابة ــ ان شخصا يعرفه قال لى ..
السيد البدين ــ أتعرفين شخصا يعرفه ؟
السيدة الشابة ــ نعم ، وهو يقول أنه رجل حــــلو الطباع ، بسيط ، يضحك وهو فى عزلته ، ويقضى أيامه فى اللعب مع أبنائه .
الشاعر الحزين ــ ويقضى لياليه يحلم بمؤلفاته المظلمة. هذا شيء فريد ! اليكم بيتا من الشعر نظمته بطريقـــة طبيعية للغاية :
« ولياليه يقضيها فى الحلم فى مؤلفاته المظلمة » .
وهو بيت مصقول حسن ، ولا تنقصه الا قافية بيت آخر .
آه ! .. هاهى ذى :

---

(١) قبائل البربر التى غزت الامبراطورية الرومانية . ووضح أن الشاعر الحزين يلمح هنا الى اسم (فيكتور هيجو) .

« فى الليل الحالك »

السيد البدين ـ كنت تقولين اذن يا سيدتى انالمؤلف المذكور له ابناء صغار .. ان هذا مستحيل ياسيدتى ، عندما يكتب المرء مثل هذا الكتاب ! .. اوه ! مثل هذه الرواية المفزعة ..

شخص ما ـ ولكن ، لاى هدف كتب هذه الرواية ؟

الشاعر الحزين ـ انى لى أن أعرف ؟

فيلسوف ـ يبدو انه كتبها بقصد الاسهام فىالغـــاء الاعدام .

السيد البدين ـ انى أقول لكم ان هذه الرواية شىء بشع !

الفارس ـ آه ! انى أرى ذلك .. انها اذن مبارزة مع الجلاد .

الشاعر الحزين ـ الواقع انه يحقد على المقصلة كل الحقد .

سيد نحيل ـ أستطيع أن أتصور ذلك ، فهىخطباذن؟

ـ كلا على الاطلاق أن هناك صفحتين على الاكثر عـن نص عقوبة الاعدام ، أما الباقى كله فهو عبارة عن مشاعر.

الفيلسوف ـ هذا هو وجه الخطأ ، فالموضــوع كان جديرا بالتأمل . ان « الدراما » أو الرواية لاتبرهن على شىء ، ثم انى قرات الكتاب ، وهو كتاب ردىء .

الشاعر الحزين ـ بل وكريه ! هل هذا فن ؟ انه قـد تخطى الحدود وحطم الزجاج ! وهناك كذلك هذا المجرم

.. آه لو كنت أعرفه ! ولكن .. كلا ! ماذا جنت يداه ؟ اننا لا نعرف عن ذلك شيئا ، وليس لاحد الحق فى أن يثير اهتمامى بانسان لا اعرفه .

السيد البدين ــ ليس من حق الكاتب أن يثير فى القارىء آلاما بدنية . اننى عندما أشاهد مسرحيات محزنة يحدث فيها قتل .. آه ! حسنا .. فذلك لا يؤثر فى نفسى ، ولكن هذه الرواية يقف لها شعر الراس ، انها تجعل جسمك يرتجف بأسره ، وتجعلك تحلم أحلاما فظيعة . لقد لازمت الفراش يومين بعد أن قرأتها .

الفيلسوف ــ زد على ذلك أنه كتاب بارد ومتكلف

الشاعر ــ أوه ! كتاب ! .. كتاب !

الفيلسوف ــ نعم ، وكما كنت تقول منذ لحظة ياسيدى انه كتاب لا يقوم على الفن الحقيقى ، الفن بمعنى الكلمة ! اننى لا اعنى بأمر افتراضى محض ، ولست أرى فى الرواية شخصية تتقمص شخصيتى . وفوق هذا ، فأسلوبه ليس بسيطا ولا واضحا ، انه ملىء بالكلمات العتيقة ، أفليس هذا هو ماكنت تقوله ؟

الشاعر ــ بلا شك ، بلا شك ! يجب الا تكون هناك شخصيات .

الفيلسوف ــ ان الشخص المحكوم عليه لايثير الاهتمام .

الشاعر ــ وكيف يمكن أن يثير اهتمام القارىء ؟ انه ارتكب جرما ولا يشعر بندم ! لو أننى كنت المؤلف لفعلت عكس ذلك تماما ، لكنت قصصت قصة شخص المحكوم عليه ، فقلت انه مولود من أبوين شريفين وتلقى تربية

طيبة . وبعد هذا يأتى الحب ، والغيرة ، وجريمة لاتكون جريمة .. ثم يأتى دور الندم . نعم ، كثير من الندم . ولكن القوانين التى وضعها الانسان لا ترحم . فيجب اذن أن يموت . وهنا ، كنت أتحدث عن موضـــوعى الذى اعالجه : عقوبة الاعدام .

مدام دى بلانفال ــ آه ! آه !

الفيلسوف ــ عفوا ! ان الكتاب كما يفهمه الســـيد لا يبرهن على شىء ، فالخاص لا يكون حكما للعام .

الشاعر ــ حسنا ! هناك ماهو أفضل . لماذا لم يتخير المؤلف بطلا لروايته مثلا ، شخصية كشخصية مالزرب ، مالزرب الفاضل ؟ آخر يوم فى حياته وعذابه قبل اعدامه ؟ آه ! انه كان خليقا عندئذ بأن يكون منظرا جميلا نبيلا ! ولكنت بكيت وارتجفت من الانفعال ورغبت فى الصعود معه الى المقصلة !

الفيلسوف ــ أما أنا فلا !

الفارس ــ ولا أنا . الواقع أن السيد « مالزرب » الذى تتحدث عنه كان ثائرا .

الفيلسوف ــ ان شنق « مالزرب » لايبرهن على شىء ضد عقوبة الاعدام بوجه عام .

السيد البدين ــ عقوبة الاعدام ! ماجدوى الاهتمـــام بهذا الامر ؟ وفيم تعنيكم عقوبة الاعدام ؟ لابد أن يـــكون هذا الكاتب من وضاعة الاصل بحيث يأتى ليثير فى أنفسنا بكتابه هذا كابوسا بشأن هذا الموضوع !

مدام دى بلانفال ــ ان الذين وضعوا القوانين لم يكونوا أطفالا .

الفيلسوف ــ آه ! ومع ذلك ، فعندما تعرض الامور في صراحة . .

السيد النحيل ــ آه ! هذا هو ماينقص الكتاب تماما : الحقيقة والصراحة .

ماذا تريدون أن يعرفه شاعر عن مثل هذه الامور ؟أيجب أن يكون المرء على الاقل وكيلا للنائب العام . عجبا ! انى قرات فى نص ذكرته احدى الصحف عن هذا الكتاب أن المحكوم عليه لا يقول شيئا عندما يقرءون عليه نص الحكم . حسنا ! اما أنا فقد رأيت شخصا محكوما عليه بالاعدام ووهو يصيح بقوة فى تلك اللحظة قائلا :

« هل ترون . . . ؟ »

الفيلسوف ــ هل تأذن . . . ؟

السيد النحيل ــ عجبا أيها السادة ! ان المقصلة وساحة الاعدام ذوق فاسد ، والدليل على هذا أنه كتاب يفسد الذوق ، ويجعل المرء عاجزا عن أن يشعر بانفعالات نقية طازجة وساذجة ! متى ينهض اذن أولئك الذين يدافعون عن الادب السليم ؟ اننى اود أن أكون عضوا فى الاكاديمية الفرنسية وقد يعطينى هذا الحق مرافعاتى كوكيل للنيابة . هذه هى حقيقة الامر ياسيد «ارجاست»، فما رأيك فى كتاب « آخر يوم فى حياة محكوم عليه بالاعدام ؟ »

ارجاست ــ الحق ياسيدى أننى لم اقرأ هذا الكتاب ولن اقرأه . لقد كنت اتعشى بالامس عند « مدام دى سينانج » ، وتحدثت الماركيزة « دى موريفال » بشأنه مع الدوق « دى ملكور » . ويقال أن هناك بعض شخصيات

ضد رجال القضاء ، وخاصة ضد الرئيس « داليمون » ، وكان الاب « دى فلوريكور » ساخطا كذلك ، ويبدو ان فى الكتاب فصلا يعارض فيه الدين بعض المعارضة وآخر ضد الملكية . آه لو كنت وكيلا للنائب العام !

الفارس ـ حسنا : وكيلا للنائب العام ! وماذا عن الدستور ؟ وعن حرية الصحافة ؟ ومع ذلك فسوف تقروننى على أن شاعرا يريد الغاء عقوبة الاعدام امر شنيع . آه ! فلو أن انسانا سولت له نفسه فى العهد البائد أن ينشر رواية ضد تعذيب المتهمين .. ! ولكنهم اصبحوا يستطيعون كتابة كل شىء منذ سقوط الباستيل ان الكتب تحدث ضررا بليغا .

السيد البدين ـ بليغا ! لقد كنا نعيش فى هدوء ولانفكر فى شىء . كان يقطع فى فرنسا رأس من حين لآخر هنا أو هناك او راسان على الاكثر فى كل أسبوع ، غير ان ذلك كله كان يتم فى هدوء وبلا فضائح . كانوا لا يقولون شيئا ، ولم يكن أحد يفكر فى الامر على الاطلاق ! وهذا كتاب .. كتاب يحدث لك صداعا أليما !

السيد النحيل ـ علينا أن نجد الوسيلة التى تجعل المحلفين يحكمون بالاعدام بعد قراءة هذا الكتاب .

ارجاسبت ـ انه يربك الضمائر .

مدام دى بلانفال ـ آه ! الكتب ! الكتب ! من كان يصدق ذلك عن رواية ؟

الشاعر ـ ليس ثمة شك فى ان الكتب كثيرا ما تكون سما لقلب النظام الاجتماعى .

السيد النحيل ـ دون أن تأخذ فى حسابنا اللغة التى

يحدث فيها السادة « الرومانتيك » ثورة كذلك .

الشاعر ــ علينا أن نميز أيها السادة ، فثمة «رومانتيك» « رومانتيك » .

السيد النحيل ــ الذوق الفاسد ! الذوق الفاسد !

ارجاست ــ انك لعلى حق . الذوق الفاسد !

السيد النحيل ــ ليس ثمة مايرد به على ذلك .

الفيلسوف ــ « وهو يتكىء على مقعد سيدة » : انهم يقولون هناك أشياء لم تعد تقال حتى فى شارع مو فتار .

ارجاست ــ آه ! ياله من كتاب بغيض !

مدام دى برفال ــ أوه ! لا تلقوا به فى النار فهناك من تمتدحه .

الفارس ــ حدثينى عن زماننا الماضى . لشد ما فسد كل شىء منذ ذلك الحين : الذوق ، والاخلاق ! هل تذكرين زماننا يا « مدام دى بلانفال » ؟

مدام دى بلانفال ــ كلا ياسيدى . لست اذكره أبدا

الفارس ــ لقد كنا نحن الشعب أكثر لطفا واكثر مرحا وخفة روح ، وكانت الحفلات الجميلة تقام دائما ، وكانت تقرا الاشعار الجميلة . كان ذلك ساحرا للغاية . أهناك ماهو أروع من الشعر الذى كتبه السيد « دى لاهارب »

عن الحفل الراقص العظيم الذى اقامته مدام «لاماريشال دومايى» فى عام ١٧٠٠ وهو العام الذى أعـــدم فيـــه « داميان ! » .

السيد البدين ـ « متنهدا » : ياله من زمن سعيد ! والآن صارت الاخلاق مروعة ، وكذلك الكتب . هـــذا البيت من الشعر الذى قاله بوالو (١) .

« ان سقوط الفنون يتبع تدهور الاخلاق »

الفيلسوف ـ « فى صوت منخفض موجها الحديث الى الشاعر » :

هل هناك عشاء فى هذا البيت ؟

الشاعر الحزين ـ نعم ، بعد قليل

السيد النحيل ـ والآن هم يريدون الغاء عقوبة الاعدام ويكتبون لهذا الغرض روايات قاسية فاســدة الذوق ولا اخلاق فيها مثل « آخـــر يوم فى حياة محـكوم عليه بالاعدام » وغيرها مما لا اعرفه !

السيد البدين ـ عجبا ياعزيزى ! لنكف عن الكلام عن هذا الكتاب الشنيع . وبما اننا قد تقابلنا ، فقـل لى

---

(١) شاعر فرنسى من شعراء القرن السابع عشر واوائل القرن الثامن عشر (١٦٣٦ ـ ١٧١١ م) .

ماذا ستفعل فى أمر ذلك الرجل الذى رفضنا طلب استئنافه للحكم الصادر عليه منذ ثلاثة أسابيع ؟

السيد النحيل ــ آه ! قليلا من الصبر ! أنا هنا فى عطلة ودعنى التقط أنفاسى . وسوف أرى ذلك بعد عودتى الى العمل ، ومع ذلك فان تأخرت كثيرا فسوف اكتب الى من يقوم بعملى .

خادم ــ « يدخل » : سيدتى : ان العشاء قد أعد !

فهرس

صفحة

مقدمة 7

الفصل الاول : قضيتي

في سجن « بيستر » ٤٦
في العربة السوداء ٥٧
العودة الى « بيستر » ٥٩

الفصل الثاني : أيام لن تعود

مذكراتي ٦٤
في الزنزانة ٧١
مشهد رهيب ٧٨
اللحن الحزين ٩٠
الكاهن ١٠٢

الفصل الثالث : الطريق الى الموت

في سجن « لاكونسير جوري » ١٠٨
هذا القسيس ١٣٢
أيام صباي ١٤٢
ماري ابنتي ١٥٧
الى ساحة الاعدام ١٦٤
الرجاء الاخير ١٧٤
مهزلة بمناسبة مأساة ١٧٧

الهلال

لقاء الفكر الخلاق
مع الماضى العريق
والحاضر المتجدد

رقم الايداع بدار الكتب : ٤٦٩٥ ـ ٨٤
الترقيم الدولي : ٢ ـ ١١٢ ـ ١١٨ ـ ٩٧٧ ISRN

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد / عبد العال بسيوني زغلول ـ الكويت ـ الصفاة ـ ص.ب رقم ٢١٨٣٣ تليفون ٧٤١١٦٤

جدة ـ ص.ب رقم ٤٩٣
السيد هاشم على نحاس
المملكة العربية السعودية

انجلترا : THE ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7. Bishopsthrose Road
London S.E. 26 ENGLAND

البرازيل : Miguel Maccul Cury. R. 25 de Maroc. 990
Caixa Postal 7406, Sao Paulo. BRASIL.

اسعار البيع فى الخارج للعدد الممتازفئة ٥٠٠ مليم :

سوريا ٩٠٠ ق.س ، لبنان ٩٠٠ق.ل ، الاردن ٨٠٠ فلس ، الكويت ١١٠٠ فلس ، العراق ١٨٠٠ فلس ، السعودية ٨ ريال ، السودان ١٠٠٠ م.س ، تونس ١٢٥٠ مليما ، المغرب ١٢٥٠ فرنكا ، الجزائر ١٢٥٠ سنتا ، الخليج ٨٠٠ فلس ، غزة والضفة ٣٠ سنت ، الصومال ٨٠ بنى ، داكار ٦٠٠ فرنك ، لاجوس ٨٠ بنى ، اسمرة ٦٠٠سنت ، اليمن الشمالية ٧ ريال ، أديس أبابا ٦٠٠ سنت ، باريس ١٠فرنكات ، لندن ١٠٠ بنى ، ايطاليا ١٥٠٠ ليرة ، سويسرا ٤ فرنكات ، اثينا ١٠٠ دراخمة ، فيينا ٤٠ شلنا ، فرانكفورت ٥ مارك ، كوبنهاجن ١٥كرونة ، استوكهولم ١٥ كرونة ، كندا ٣٠٠ سنت ، البرازيل ٤٠٠سنت ، نيويورك ٣٥٠ سنتا ، لوس انجلوس ٤٠٠ سنت ، استراليا ٤٠٠سنت ، هولندا ٥ فلورين ، عدن ٤٠٠ فلس

هـذا الكتاب

اذا كان فيكتور هيجو قد اشتهر اكثر ما اشتهر بمؤلفه الرحيم حيال البؤساء وحملته على النظم الاجتماعية التى كانت قائمة فى عصره ، فقد اشتهر كذلك بحملاته العنيفة ، وثوراته القاسية على الاوضاع القانونية . ولقد ثار هيجو ثورة عنيفة على الحكم بالاعدام . وقد دفعه الى هذه الحملة نزعة انسانية نبيلة كان من اثرها ان اخرج هذا الكتاب الرائع (آخر ايام محكوم عليه بالاعدام) (Le dernier jour d'un condamné) الذى احدث ضجة عقلية بين الناس عامة ورجال القضاء خاصة . وقد جعل الكتاب على لسان احد المحكوم عليهم بالاعدام الذى شاء ان يسطر على القرطاس احاسيسه ومشاعره وما لاقاه من ضروب العسف والقسوة من رجال الشرطة . وهذه الصرخة المدوية التى سجلها هيجو فى كتابه دفعت كثيرا من الناس ان يطالبوا بالغاء الحكم بالاعدام .

ويسر سلسلة كتاب الهلال أن تعيد اليوم تقديم هذه التحفة الرائعة .

٥٠ قرشاً

